إنهم فتيـــة

(رواية أندلسية)

المقدمة

****

فى دورة التاريخ أمم تتهالك وممالك تتساقط ، حضارات تقوم وأخرى تندثر ، شعوب ثارت فصنعت مجدها وأخرى إستكانت فماتت ونُسيت فى مجاهل التاريخ وظلماته ، وبين هذا وذاك تبقى العبر والدروس التى لا تنتهى لتروى للأجيال المتعاقبة تلك الحكمة الكامنة بين طيات السنين حتى لا تتكرر صفحات التاريخ فيُعيد الأمس نفسه مرات ومرات ...

فالتاريخ ليس مجرد أقاصيص تُحكى لينام الأشبال، ولا هو مجرد تسجيل للوقائع والأحداث .. وإنما هو عبر ودروس ليستيقظ الرجال ، وليستوعبوا تجارب السابقين التى جرت عليها سُنة الله التى لا تتغير ولا تتبدل ..

إن التاريخ يكرر نفسه لأنه يسير وفقاً لتلك السنن الثابتة ، وها هى الأمم تتبدل أحوالها من حال إلى حال بحسب الطريق الذى تسلكه والمنهج الذى تتبعه ، فإن تمسكت بعقيدتها وآمنت بنفسها وإتبعت نهج الحق أفلحت وعلا شأنها بين الأمم ، وإن هى تخلت وإتبعت سبيل الظالمين ضلت وسقطت وإندثرت ...

وفى تاريخ الأندلس تتجسد تلك السنن ، فحين إتبع المسلمون نهجهم صنعوا دولة قوية وحضارة لا تُضاهى فى ذلك الزمان ، وحين إبتعدوا عن ذلك المنهج ضعفوا وتراجعوا وتكالبت عليهم أعدائهم ليتفرق شملهم ويضيع ذلك الفردوس المفقود من بين أيديهم ....

وفى روايتنا سنجد أن الفردوس المفقود ليس فقط تلك الأرض وهذه الحضارة التى فقدناها منذ مئات السنين ، سندرك أن بداخل كل منا فردوساً مفقوداً نحتاج للعثور عليه قبل أن نجد فردوسنا الأكبر .. ذلك الفردوس هى نفوسنا التى تاهت فى دروب الغربة ، تلك الغربة التى عانينا منها فى أوطاننا قبل كل شئ ، فأصبحنا غرباء حتى عن أنفسنا ، فقدنا الإنتماء فلم نعد ننتمى لشئ ، تشوهت هويتنا ومُسخت أفكارنا ، وئدت أحلامنا وقُتلت بلا ذنب ، فتُهنا وتفرقنا فى مشارق الأرض ومغاربها ليتحكم الآخرون فى مصائرنا ومستقبلنا .

سندرك أننا حين نجد ذلك الفردوس المفقود ربما وقتها سنسترجع فردوسنا الأكبر ، وتشرق شمس أمتنا على الدنيا من جديد وتنفض عنها غبار تلك السنين التى قضتها فى ضعف وتشرزم وضياع ...

فى روايتنا سنتعرف على قصة سقوط غرناطة والتى لم تكن سوى تلك القصة المكررة لجزء من أجزاء الأمة ، إنشغلنا بأنفسنا وبأطماعنا وصراعاتنا وتركناه وحيداً بلا مغيث ولا معين ولا سند ، فتكالبت عليه الأعداء ليستأصلوه من جسد تلك الأمة ...

إن التاريخ صفحات تتوالى والأيام دول تتعاقب ، وما حدث بالأمس ليس ببعيد ، وتلك أمة لا تموت وإنما تمرض وتضعف ليبعث الله فيها من يعيد إليها قوتها ومجدها ،رجال صادقون آلوا على أنفسهم ألا تُذل تلك الأمة أو تنحنى ، وفتية ينشأ ناشئهم على نهج الأولون الصالحون ، فتية آمنوا بربهم وبأمتهم وبرسالتهم فدلهم على الطريق وزادهم رشداً ....

إهداء

إلى تلك المرأة التى أفنت عمرها لتُنير لى عتمة الدرب

إلى أمى

الفصل الأول

****

التاريخ ليس مجرد وسيلة للتباهى والتفاخر الأعمى بالأنساب ، ولا هو طريق للحصول على مجد شخصى لا تستحقه لمجرد الإنتماء الأجوف لحضارة ما .. التاريخ حجة قائمة ودليل حاضر ومعلم حكيم لمن وعى وفهم ..

إنطلقت تلك السيارة الرياضية الحمراء بسرعة كبيرة فى شوارع ماربيلة بمالاجا فى أسبانيا، وقد علا منها صوت صاخب لأغنية مشهورة لأحد المطربين الأسبان يقودها ذلك الشاب الثلاثينى، وقد إنخرط فى الغناء بشكل هستيرى على أنغام تلك الأغنية ، لم يقطعه سوى وصوله لمقر عمله بتلك الشركة الهندسية ، حيث هبط من سيارته ليدلف إلى مبنى الشركة وهو يُلقى التحية على حارس العقار فى بساطة وتلقائية ويمازحه كعادته هاتفاً :

- مرحباً ألفارو ، كيف حالك اليوم ..؟
- مرحباً سيد خوليو .
- أين ماركو .. ؟!، فأنا لا أراه ..
- لقد حصل ماركو على أجازة ، فهو سيتزوج اليوم .

ضحك خوليو فى مرح وهو يتجه إلى المصعد هاتفاً:

- إذاً فهو لا زال مُصراً على قراره ، عمومًا بلغه تهنئتى له، وذكره أنى قد حذرته من قبل.

إستقل خوليو المصعد فى نشاط وهو ما زال يترنم بكلمات أغنيته المفضلة، حتى وصل المصعد للطابق الحادى والعشرين ليغادر المصعد متجهاً إلى مكتبه .

كان خوليو شاباً وسيماً فى الثلاثين من عمره، ذو شعر كثيف حالك السواد وبشرة برونزية وجسد ممشوق القوام ، يرتدى بنطالاً من الجينز الأزرق وقميصًا أبيض فُتحت أزراره العلوية لتكشف عن صدره ومعطف أسود اللون، مما جعله أشبه بنجوم السينما الأسبان .

كان خوليو مندمجاً فى العمل حين قاطعه صديقه وزميله فى العمل فابيان والذى دلف إلى المكتب هاتفًا :

- خوليو عزيزى ... لقد توقعت أن تتأخر اليوم بعد سهرة أمس ، ولكنك دائمًا تخالف توقعاتى.

ضحك خوليو وهو يتراجع فى مقعده قائلاً :

- أنت تعرفنى جيدًا يا فابيان، فالعمل بالنسبة لى يأتى دائمًا فى المرتبة الأولى .

جلس فابيان على المقعد المواجه لمكتب خوليو قائلاً :

_ أعرفك جيدًا يا صديقى، فلا شئ عندك أهم من العمل ..حتى عائلتك .. فأنت لم تزرهم بمصر ولو مرة واحدة منذ وفاة والدك حينما كنت فى السادسة عشر من عمرك.

تغيرت ملامح خوليو فجأة وقد إكتست ملامح وجهه بالصرامة والجدية وهو يتظاهر بمراجعة بعض التصميمات متمتمًا :

_ فابيان .. لا تبدأ معى .

أشار فابيان بيديه هاتفًا :

_ حسنًا .. حسنًا ، أعرف أنك تغضب من مجرد ذكر الموضوع...

رمقه خوليو بنظرة حادة مما جعله يتراجع على مقعده قائلاً :

_ لكننى لا أستطيع فهمك يا صديقى ، فبالرغم من أنك أتممت الثلاثين من عمرك إلا أنك لا تحتسى الشراب أبدًا، وليست لك صديقة، حتى أنك تصد هؤلاء الجميلات اللاتى يتقربن منك، ولولا معرفتى الوطيدة بك منذ المرحلة الثانوية لقلت أنك متدين.

حاول خوليو أن يبتسم فى هدوء قائلاً :

_ لا يوجد مثل الحرية يا صديقى، فالشراب والنساء يأسرن الرجل ويفقدنه عقله، وأنا أريد أن أحتفظ بعقلى وحريتى معًا .

تنهد فابيان وهو ينهض من مقعده قائلاً :

_ حسنًا .. أعرف أنه لا فائدة من الحديث معك فى هذا الشأن، دعنا نُجهز لإجتماع اليوم فإنريكى لن يرحمنا إذا لم تعجبه التصميمات، تعرف كم هو دقيق فى عمله ومن الصعب إرضاؤه.

قالها فابيان وهو يغادر الغرفة تاركًا خلفه خوليو وقد إختفت تلك الإبتسامة من على وجهه ليحل محلها مزيج غريب من الغضب والحزن ، وهو ينهض ليتطلع من خلف نافذة غرفته ليحدق فى الفراغ وهو يتذكر والده.

فقد كان خوليو الإبن الوحيد لأب مصرى وأم إسبانية ، جمعت بينهم قصة حب كبيرة ، جعلت والد خوليو ، والذى جاء لأسبانيا للعمل فى أجازة الصيف حيث كان وقتها طالب بكلية الهندسة بجامعة القاهرة ، يستقر بأسبانيا ويُكمل تعليمه فيها ليرتبط بوالدة خوليو التى توفت بعدها بخمس سنوات وهو لم يكمل بعد عامه الرابع ، ليتولى والده تربيته ورعايته، وطوال ستة عشر عامًا قضاها مع والده قبل وفاته ، لم يزر مصر معه سوى ثلاثة مرات فقط.

ثلاثة مرات لم يشعر خوليو خلالها بالإنتماء قط إلى مصر، فقد كان يقضى فترة الزيارة وكأنه سائح يتمتع خلالها بمعالم مصر، فيما عدا ذلك الوقت الذى كان يقضيه مع جده وجدته أثناء تواجده فى مصر.

كان يشعر وقتها بدفء غريب لم يعتاد عليه فى أسبانيا ، وخصوصًا مع حكايات جده مدرس التاريخ، والتى كانت تُشعره وكأنه ينتقل عبر الزمن فى سحر عجيب، وحنان جدته الذى كان كنهر جارى يجرى ليروى أرضًا ظلت تعانى الجفاف لسنوات ، ولكنه بالرغم من كل ذلك كان يتعامل معهم بجفاء وقسوة كانت تؤلمهما وتُحزن والده الذى كان يتمنى أن يشعر ولده بالإنتماء ، أن تكون له ذكريات مرتبطة بأرضه وأصوله ، ذكريات تأتى به يومًا إلى هناك حيث جذوره .

ولكن والده لم يفهم أبدًا السبب الحقيقى وراء القسوة والنفور التى يتعامل بها خوليو أثناء وجوده فى مصر وسط أهله ، لم يفهم أن ولده يشعر بأنه لا مكان له هناك ، فهو سيعود حتمًا إلى أسبانيا ، حيث لا عائلة له سوى والده الذى يحاول دائمًا أن يكون له كل شئ ، الأب والأخ والصديق ، ولكن ذلك كله لم يخفف من وحدة خوليو.

كان يعرف أن وجوده فى مصر وسط عائلته هو أمر مؤقت سينتهى حتمًا بعد أيام طالت أم قصرت ، لذلك كان يخاف من أن يتعلق بهم ثم يعود ليفقدهم مرة أخرى ، وهو ما جعله يكره تلك الزيارات ، ويكره أى شئ يربطه بهم .

حتى اسمه العربى " خالد "لم يكن يحب أن يناديه به أحد قط ، لذلك كان معروفًا وسط الجميع باسم " خوليو " ، فلم يعد أحد يناديه بذلك الإسم بعد والده سوى جده وجدته فى

رسائلهم والتى نادرًا ما يقوم بقراءتها ، حتى إتصالاتهم لا يرد عليها إلا نادرًا ، مُتعللاً بإنشغاله الدائم.

لقد أصبح الآن إسبانيًا تمامًا كما أراد ، إلا أنه ما زال يشعر أن ثمة شئ ما بداخله لا يستطيع التخلص منه ، شئ يمنعه من الإحساس بالرضا ، شئ يُشعره دائمًا بالحزن ، شئ يجعله يشعر بالوحدة حتى وسط أقرب الناس إليه ، شئ لم يُدرك كنهه أبدًا.

أفاق خوليو من شروده على طرقات خفيفة على باب مكتبه أعقبها دخول تيلدا سكرتيرته لتذكره بميعاد الإجتماع ، مما جعله يُلملم أوراقه ويُسرع فى طريقه لغرفة الإجتماعات .

****

تراجع الدكتور أندريس لارجاتشا ، أستاذ التاريخ بجامعة كاستيالا لا مانتشا ، فى مقعده بمكتبه فى مقر الجامعة بكوينكا فى أسبانيا، قائلاً فى هدوء :

- لقد تحدثت بالفعل مع الدوق ليونسيو غونزاليس دوق مدينة سيدونيا بشأن المخطوطات التى تريد الإطلاع عليها ، وقد تفهم الرجل الأمر بحكم كونه أستاذ تاريخ بالأساس .

إعتدل سليم باحث الدكتوراه بالجامعة ، والذى يجلس فى مواجهته ، وهو يهتف فى لهفة :

- أخيرًا سأطلع على تلك المخطوطات .

كان سليم شابًا مغربيًا فى الحادية والثلاثين من عمره ذو ملامح حادة وجسد نحيف ، وله بشرة بيضاء وشعر قصير بنى اللون ، ينتمى إلى إحدى العائلات الموريسكية التى إستقرت بتطوان فى المغرب ،كان الأول على دفعته منذ أن تخرج بجامعته فى تطوان وقد عُين مُعيداً بالجامعة ، إلا أنه لم يلبث أن سافر إلى أسبانيا لإستكمال دراسته بها ، ولتحقيق حلمه فى الحصول على الجنسية الأسبانية والإستقرار بها كمواطن له حقوقه وواجباته ، ليس هذا فحسب وإنما كان يحلم بحصول الموريسكيين على حقوقهم فى وطنهم الأم الذى لفظهم ذات يوم تحت ضغط جرائم محاكم التفتيش ، صحيح أنه يعشق المغرب ولكنه لم يراها يوماً على أنها وطنه الأم ، فما زالت عائلته تحمل مفاتيح بيوتهم فى الأندلس كمعظم العائلات الموريسكية ، فقد كان هناك إتجاه فى أسبانيا لرد الاعتبار لأحفاد الموريسكيين ،لكنه لم يذهب

إلى حد مطالبة الدولة بالإعتذار الرسمي، أو تعويض أحفاد المطرودين اليوم مقابل ممتلكات أجدادهم التي سُلبت منهم، أو تمكينهم من الحصول على الجنسية الإسبانية ، أُسوة باليهود السفارديم الذين طُردوا من الأندلس قبل خمسة قرون ، وهو ما كان يشغل تفكيره دائماً ، لذلك كان ذلك محور دراسته للغرادو وكذلك موضوع الدكتوراة التى يعمل عليها حتى الآن .

كان سليم شديد الحماسة ، لا يتقبل ما يتعارض مع قناعاته بسهولة ، يملك إصرارًا شديدًا ومثابرة لتحقيق حلمه ، لا يلتفت عنه مهما كانت الأسباب ، يمتلك عزيمة لا تكل ولا تفتر ، وهو ما جعله شديد اللهفة للإطلاع على تلك المخطوطات ، لدرجة جعلت أندريس يشير إليه مُحذرًا :

- عيبك يا سليم أنك دائمًا مُندفع مُتعجل ، ولكن الأمور لا تسير دائمًا بالسهولة التى تعتقدها .

مال سليم على المكتب وهو يهتف فى قلق :

- هل لا زالت توجد تعقيدات فى الأمر...؟
- ليست تعقيدات بالمعنى المفهوم ، فالرجل قد وافق ولكنه أرجأ الأمر لحين عودته من أمريكا ، كما أننا لم نتأكد حتى الآن إن كانت تلك المخطوطات هى المقصودة أم لا ، ولكن فى كل الأحوال لا أريدك أن تتحمس كثيرًا .

تنهد سليم فى ضيق وهو يتراجع فى مقعده قائلاً :

- كيف لا أتحمس ..؟! ، فأنا أبحث عن تلك المخطوطات منذ أربعة أعوام ، حينما كنت أدرس الغرادو ، إلى أن قابلت الدكتور أنصارى مساعد دكتور الكتانى فى إحدى زياراتى للمغرب ، والذى أخبرنى أنه رأى إحدى المخطوطات التى ربما تكون على صلة بذلك الموضوع أثناء زيارتهم التى دعتهم إليها الدوقة لويزا إيزابيل ألفاريز فى قصرها بسانلوكار دى بارميدا ، كما أن رسالة الدكتوراة التى أعمل عليها مرتبطة بها بشكل كبير ، وذلك بالإضافة لأهميتها الشخصية لى كما تعلم .

أشار إليه أندريس بيديه ، وهو يُعدل منظاره الطبى قائلاً :

- وهذا أكبر خطأ من الممكن أن يرتكبه باحث يا سليم، فأنت تنظر لبحثك من وجهة نظر شخصية، فمن ناحية .. أنت تريد إنهاء بحثك فى تحديد الهوية الموريسكية فى ضوء الظروف الصعبة والأزمات التى مر بها الموريسكيون ، وحقوقهم فى تقرير حق العودة والإعتراف لهم بالجنسية الأسبانية ، أسوة بما حدث مع اليهود السفارديم بعد تعديل القانون الأسباني فى عام 2015 ، ومن ناحية أخرى .. فأنت تبحث عن تاريخ عائلتك الموريسكية وباقى العائلات قبل هجرتهم إلى المغرب فى مواجهاتهم لبطش الأسبان فى ظل وجود محاكم التفتيش ومحاولات تنصيرهم القسرية .

تململ سليم من ملاحظات أندريس والتى لا يمل من أن يُسمعه إياها كلما سنحت له الفرصة ، مما جعله يهتف :

- وما الخطأ فى الجمع بين الهدفين ..؟! ، فالباحث يجب أن يؤمن بالقضية التى يطرحها للبحث ، وإلا كيف يتناولها ويصل فيها لنتيجة ، كما أننى لست أول من يتناول تاريخ العائلات الموريسكية فى مواجهة فى مواجهة بطش محاكم التفتيش فما زالت صفحات كثيرة من ذلك التاريخ مطوية لم يُكشف عنها النقاب بعد وخصوصًا فى ظل إختفاء الكثير من المخطوطات التى تتناول تلك الفترة بالتفصيل .

تراجع أندريس على مقعده قائلاً فى هدوء :

- المشكلة هنا تكمن من جهة.. فى حيادك كباحث ، فأنت تنظر للأمور وتقيمها من وجهة نظر شخصية قد تؤثر عليها العواطف والإنتماءات والعصبية ، وليست وجهة نظر أكاديمية بحتة ، ومن جهة أخرى .. فأنت تجعل من التاريخ وسيلة للوصول إلى أهدافك دون أن تفهم الحكمة التى يقدمها والدروس المستفادة منه ..
التاريخ يا سليم ليس مجرد وسيلة للتباهى والتفاخر الأعمى بالأنساب ، ولا هو طريق للحصول على مجد شخصى لا تستحقه لمجرد الإنتماء الأجوف لحضارة ما .. التاريخ حجة قائمة ودليل حاضر ومعلم حكيم لمن وعى وفهم ..

تنهد سليم وهو يهتف فى نفاذ صبر :

_ أتفق معك فى أن التاريخ مُعلم ومُحفز حتى لا نُكرر أخطاء الماضى ونتعلم منه ، فالذين لا يذكرون التاريخ محكوم عليهم بأن يعيشوه مرة أخرى كما قال جورج سانتايانا ، ولذلك يجب أن نتذكره دائمًا ، ونبحث فى طياته حتى نُظهر الحقائق للعالم ونُجبره على معاملتنا بعدل ، وإعطائنا أبسط حقوقنا فى العودة لوطننا الأم ، والإعتراف بنا كجزء من نسيج المجتمع الأسبانى .

أشار أندريس فى يأس قائلاً :

_ لن أجادلك أكثر يا سليم ، فأنا أعرف أنك لن تقتنع ، ولكن سيأتى اليوم الذى تدرك فيه ما أردت إفهامك إياه ، وأرجو أن يكون ذلك قريبًا .

قالها ثم إعتدل على مقعده هاتفًا :

_ عمومًا فقد أخبرنى دوق ليونسيو أنه سوف يُحدد لك ميعاد لمقابلته فى قصره فى سانلوكار دى بارميدا فى نهاية الأسبوع القادم بعد عودته من أمريكا .

نهض سليم من مقعده مستأذنًا أستاذه فى المغادرة بعد أن شكره على جهوده التى بذلها من أجل تمكينه من مقابلة الدوق والإطلاع على تلك المخطوطات ، وما إن غادر مكتبه حتى أخرج هاتفه ليتصل بصديقه الصحفى التونسى مروان ، وهو يهتف فى حماس:

_ لقد حدث يا مروان ... لقد حدث .

ضحك مروان وهو يهتف فى مرح :

_ وما ذلك الذى حدث يا عبقرى المغرب العربى ..؟!، هل نصّبوك ملكاً لأسبانيا ..؟!

عقد سليم حاجبيه وهو يهتف فى غضب :

_ ألن تتوقف عن سخريتك تلك ..؟! ، فالموضوع لا يحتمل المزاح ..

_ حسنًا .. حسنًا .. لا تغضب ، أنا أمزح معك فقط، والآن أخبرنى ما هو ذلك الأمر الجدى الذى يجعلك مُتحمسًا هكذا ..؟!

_ لقد وافق دوق سيدونيا على مقابلتى وإطلاعى على المخطوطات التى أخبرتك عنها ..

هتف مروان فى دهشة :

- حقًا ..؟! ، لقد ظننت أن الأمر يكاد يكون مستحيلاً ، خاصة فى ظل الظروف التى مرت بها عائلة الدوق فى الفترة الأخيرة بعد صراعهم من أجل الحصول على تركة والدتهم الدوقة لويزا ألفاريز ، والتى تبرعت بكل أصولها لمؤسسة كازا ميدينا سيدونيا بما فيها قصر جوزمان فى سانلوكار دى بارميدا بما يحتويه من أرشيف تاريخى يضم ملايين الوثائق والمخطوطات .
- لقد حسم القضاء الأمر لصالح الدوق وإخوته بالفعل ، بعد أن إعترفت لهم المحكمة بالحقوق التي يتمتعون بها على تراث والدته ، الدوقة الحمراء المعروفة.
- وهل يعرف الدوق المخطوطات المقصودة أم أن الأمر سيتطلب البحث فى ملايين المخطوطات فى ذلك الأرشيف العتيق ..؟
- بالطبع لا ... فقد أخبرنى الدكتور أنصارى أن تلك المخطوطات مع غيرها لم تضمها الدوقة للأرشيف قبل وفاتها ، فهى من ضمن المخطوطات التى إحتفظت بها لسبب ما ، وقد تحدث الأستاذ أندريس مع الدوق فى هذا الشأن ، يتبقى فقط أن نَطَّلع على تلك المخطوطات لمعرفة ما إذا كانت تلك هى المخطوطات المقصودة من عدمه.
- ومتى ستقابل الدوق ..؟
- سيتم تحديد ميعاد فى نهاية الأسبوع القادم فى قصره فى سانلوكار دى بارميدا.

هتف مروان فى مرح :

- حسنًا .. ولكن هذا الخبر يتطلب منك دعوتى على الغداء بهذه المناسبة .

أنهى سليم حديثه مع مروان بعد أن إتفقا على اللقاء فى السادسة مساءًا ، وبالرغم من أنه من المفترض أن يتوجه للمكتبة بعد لقاؤه بدكتور أندريس ، إلا أنه غادر الجامعة ، وظل يسير على قدميه دون أن يحدد وجهته، فقد كان عقله مشغولاً بتلك المخطوطات ، وما قد تحمله من حقائق ..

تُرى هل تحمل إليه ما كان يصبو إليه طوال تلك السنوات ..؟!

أم تذهب آماله وأحلامه أدراج الرياح ... ؟

****

تململ سليم وهو ينظر إلى ساعته أثناء إنتظاره لمروان فى ذلك المطعم الصغير الذى إعتادا تناول الطعام فيه ، فقد كان يشعر بالرغبة الشديدة فى تجاوز الزمن من أجل تلك اللحظة التى ظل ينتظرها لسنوات ..

لقد ظل يبحث فى تاريخ العائلات الموريسكية بالتفصيل فى تلك الفترة التى إنتهت بتسليم غرناطة ومقاومتهم وصمودهم فى ظل محاولات إضطهادهم وتنصيرهم ، فى محاولة منه لتوثيق تلك الفترة وخاصة فى ظل قيام محاكم التفتيش بالكثير من المحاولات لطمس وتزييف الحقائق فى تلك الفترة.

لقد كان طموحه كبيراً فى أن يحصل الموريسكيون على حقوقهم أسوة بما حدث مع اليهود السفارديم ، وخصوصاً أن اليهود لم يقدموا لأسبانيا ولا للعالم ما قدمته الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، لذلك فهو على إستعداد للنضال من أجل تحقيق حلمه الذى سبقه إليه العديد من الباحثين والمهتمين ، ولكن الآن وبعد تعديل القانون الأسبانى أصبح هناك أمل فى العودة ، وفى الإعتراف بهم ، بل وفى منحهم الجنسية الأسبانية أخيراً بعد كل تلك المعاناة التى مروا بها على مدار أجيال .

لقد ظل يبحث لسنوات، وها هى الفرصة تسنح أمامه وخاصة بعد الكشف عن تلك المخطوطات التى ربما تكشف عن تفاصيل أكثر وأدق عن تلك الفترة .

أفاق من شروده على صوت النادل وهو يقول فى هدوء :

_ سنيور سليم هل ستتناول طعامك الآن، أم ستنتظر سنيور مروان كالعادة ....

قاطعه من خلفه صوت يهتف فى مرح :

_ بل سيتناوله الآن، فها أنا قد حضرت، أسرع بالله عليك يا أدواردو فأنا لم أتناول شيئًا منذ الصباح ، ومعدتى تكاد تصرخ من شدة الجوع .

إبتسم إدواردو قائلاً فى هدوء :

_ سيكون الطعام جاهزًا فى الحال سنيور مروان .

إنصرف النادل ليلتفت سليم إلى مروان هاتفًا فى غضب :

_ ما الذى جعلك تتأخر حتى الآن، فأنا أنتظرك منذ ما يقارب الساعة .

هتف مروان فى مرح كعادته :

_ العمل يا صديقى، فأنت تعرف طبيعة عملى، والأخبار لا تنتظر أحد، ولكن دعك منى الآن وأخبرنى ... هل فعلاً سمحوا لك بالإطلاع على تلك المخطوطات ..؟

كان مروان شابًا تونسيًا فى التاسعة والعشرين من عمره ، ذو شعر مجعد وبشرة خمرية اللون، معتدل القوام ، يعمل صحفيًا بإحدى الصحف الإسبوعية فى مدينة كوينكا بأسبانيا ، ترك تونس بعد أن كشف فساد مجموعة من تُجار الأغذية الذين يتاجرون فى أقوات الشعب ويتحكمون بها ، مما تسبب فى طرده من الصحيفة التى كان يعمل بها ، ليس هذا فحسب وإنما وصل الأمر لتهديده وتهديد عائلته ، مما جعله يغادر تونس نهائيًا ، تاركًا ورائه كل شئ ، حلمه وعائلته وبيته ووطنه ، كانت تلك هى أول مواجهة له فى حياته المهنية شعر بعدها وكأن شيئًا بداخله قد كسر إلى الأبد ، شئ لن تستطيع قوة فى العالم جبره مرة أخرى ، شعر وقتها وكأن بلاده لم تكن له أو لأمثاله يومًا ، ولكنها ملك لهؤلاء الذين يتحكمون فى مصيرها ومصائر أهلها ، ينهبون خيراتها ويقتلون أحلام شبابها ، ومنذ أن تركها لم يفكر أبدًا بالعودة ، أربعة سنوات قضاها فى أسبانيا لم يفكر خلالها بالعودة مرة واحدة ....

كان وجود سليم رفيق السكن والذى تعرف عليه بعد قدومه إلى أسبانيا هو ما يهون عليه ما يلاقيه ، فقد واجه صعوبات كثيرة حتى وجد عملاً فى تلك الجريدة التى يعمل بها الآن ، مما جعلهم صديقين مقربين...

إعتدل سليم فى مقعده وقد نسى غضبه قائلاً :

_ لقد تحدث الأستاذ أندريس إلى الدوق ليونسيو، وسيحدد لى ميعاد لمقابلته والإطلاع على تلك المخطوطات ، ولكن لم يتم التأكد بعد إذا كانت تلك المخطوطات هى المقصودة من عدمه، فالدكتور أنصارى لم يطلع عليها بالكامل، وإنما كان ذلك بشكل عابر أثناء زيارته مع دكتور الكتانى كما تعرف .

تطلع إليه مروان فى قلق قائلاً :

- أتعرف يا سليم ..؟، بقدر ما أتمنى أن تحقق حلمك وأن تكون تلك المخطوطات هى الوسيلة التى تساعدك فى الوصول إلى ما تصبو إليه منذ سنوات ، إلا أننى فى نفس الوقت لا أريدك أن تضع كل آمالك على تلك المخطوطات، صحيح أن الكشف عنها لو كانت هى بالفعل المقصودة سيضيف الكثير لبحثك وسيدعم ما تسعى إليه أنت وغيرك من العائلات الموريسكية فى مطالبهم من الحكومة الإسبانية ، وسيفيدك أنت بشكل شخصى فى معرفة تاريخ عائلتك قبل هجرتهم إلى المغرب ، لكن يبقى كل ذلك مجرد خطوة على الطريق، فما زال الطريق لما تسعى إليه طويلاً يا صديقى .

أشار إليه سليم وهو يتراجع فى مقعده قائلاً فى توتر:

- أدرك ذلك جيدًا يا مروان، وأدرك أيضًا أن الطريق لذلك ليس سهلاً أبدًا، فها هو الدكتور على بن المنتصر الكتاني، رحمة الله عليه، والذى سعى كثيرًا من أجل بعث الإسلام فى الأندلس وتجميع الموريسكيون ووحدتهم ودفع الدولة للإعتراف بهم وبحقوقهم، وقد حورب واضطُهد ...

وها أنت ترى جامعة ابن رشد فى قرطبة والتى شيدها وأسسها وتعب من أجل إقامتها لتكون أول جامعة أسسها المسلمون الأندلسيون، وأول مسجد منذ سقوط غرناطة، وقد تحولت إلى أطلال بعد وفاته فى ظروف غامضة بعد أن تخرجت منها عدة دفعات فقط .

تنهد مروان فى حزن قائلاً :

- لقد حدثتنى عنه ذات مرة من قبل ، لقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أسمع فيها بتلك الجامعة .
- رحمة الله عليه، فقد بذل مجهودًا جبارًا من أجل رسالته التى أخذ على نفسه عبء حملها، فقد بدأ منذ عام 1971 ، هل تعرف أن مقر الجامعة يقع فى زقاق يسمى زقاق المحرقة، حيث كان يؤخذ منه المسلمون قسرًا لخارج السور من أجل حرقهم بالنار أحياء أمام الناس.

إستدرك مروان وقد إرتسمت على وجهه علامات الحزن قائلاً :

- ولكنك أخبرتنى أنه حورب بشدة وتم تهديده وبالرغم من ذلك لم يستسلم حتى توفى فجأة فى ظروف غامضة.
- أتعرف يا مروان ... لقد كان يثق ثقة كبيرة فى الأجيال القادمة، وعندما أسس الجامعة كتب فى رخامة عليها :

(أسس هذه الجامعة المسلمون الأندلسيون الذين عادوا إلى دينهم بعد خمسمائة عام من القهر والتجهيل ومحاكم التفتيش .....).

ولكن بعد موته للأسف نُهبت حساباته وكذلك نُهبت الجامعة ووثائقها، وأُغلقت بعد وفاته بسنة ، وتحولت الجامعة بعد إغلاقها لسنوات إلى مطعم وكافيتريا عربية، أما مسجدها .. فبعد فشل محاولات غلقه بقى مصلى لا تقام فيه جُمعة ولا جماعة.

هتف مروان فى حماسة قائلاً:

- ولكن جهوده بالتأكيد لم تذهب سدى ، فالأفكار والمبادئ لا تموت بموت أصحابها يا صديقى ، وها أنت وغيرك تُكملون الطريق من بعده .

أشار سليم بيده قائلاً:

- صدقت يا مروان ، فالكثير من تلامذته الذين أسلموا على يديه حاولوا إكمال مشواره من بعده ، وكذلك القوانين الأسبانية المعترفة بالإسلام كدين مكون للهوية الأسبانية، والذى كان له يد كبيرة فى تقنينها، كما أن التراث الذى يُمثل الذاكرة الإسلامية للبلاد من خلال لغاتها المحلية المكتوبة بالحرف العربى، والذى يُعتبر مجالاً علمياً إختصاصياً الآن، يُعتبر هو أول من تحدث عنه.

قاطعهم تقديم النادل للطعام، مما جعل مروان يهتف فى مرح قائلاً :

- لقد شغلتنا بالحديث عن الطعام يا فتى، دعنا الآن نتناول غذائنا قبل أن يأخذنا الحديث الذى لا ينتهى عن التاريخ.

ضحك سليم هاتفاً :

- لا تُنكر أنك مُتحمس مثلى وربما أكثر، ربما هو الفضول الصحفى يا صديقى.

بادله مروان ضحكته وهو يهتف:

_ لذلك لن تذهب وحدك إلى سانلو كار دى بارميدا .

قالها وهو يتناول الطعام فى نهم، وقد أخذهم الحديث عن أمورهم اليومية، ولكن عقل سليم كان فى مكان آخر..

هناك حيث تكمن واحدة من أهم خطواته فى طريقه لتحقيق حلمه ..

بل ربما أهمها على الإطلاق ..

فى سانلو كار دى بارميدا...

****

دق هاتف بوريجو الذى أسرع ليرد عليه وسط إنتباه زميله أكثينو الذى جلس ينظف سلاحه، محاولاً معرفة هوية ذلك المتصل الغامض الذى يتحدث إليه بوريجو بذلك الإهتمام ، ولكنه لم يستغرق طويلاً فقد أنهى بوريجو المكالمة سريعًا ليصب له كأسًا من الشراب ويتجرعه ببطء وقد شرد بعد تلك المكالمة ، مما جعل أكثينو يسأله وقد تشاغل فيما يفعله:

_ من ذاك المتصل الغامض الذى جعلك تشرد هكذا ..؟

إنتبه إليه بوريجو ، فنظر إليه فى شرود ثم تجرع بقية كأسه دفعة واحدة ، وهو يقول فى توتر:

_ إنه ذلك المأفون من سانلوكار دى بارميدا .

هب أكثينو واقفًا وقد ترك سلاحه من يده قائلاً فى إهتمام :

_ تقصد ذلك الرجل الذى تعاونَّا معه من قبل لسرقة مخطوطات ووثائق ولوحات من قصر جوزمان .

_ إنه هو ..

_ وما الذى ذَكّره بنا الآن ، ألم ينتهى عملنا معه بعد إتفاقنا أن ينسى كل منا الآخر .

_ أعلم ذلك ..، ولكنه يريدنا فى عملية أخرى .

_ عملية أخرى ...؟! ، أتدرك خطورة ذلك ...؟!

- بالطبع .. ولكن لا تنسى أنه عملنا ، كما أنه قد مرت عدة سنوات منذ آخر عملية لنا بالقصر ، والأمور هناك قد هدأت بشكل كبير الآن .
- أنسيت ما حدث بعد آخر عملية لنا هناك ..؟، لقد قامت الدنيا هناك ، بل لقد وصل الأمر إلى أعلى المستويات ، فلم نكن ندرك خطورة وأهمية المسروقات وقتها ، والتى علمنا فيما بعد أنها تساوى ثروة لا تُقدر بثمن ، فى الوقت الذى أعطانا فيه ذلك المأفون بضعة آلاف من أجل القيام بتلك المهمة .
- لم أنس بالطبع ، ولكننا نستطيع أن نُملى شروطنا هذه المرة ، ونطلب مبلغًا كبيرًا بعد أن علمنا قيمة تلك المسروقات ومدى خطورة العملية ، ولا تنس أنت أيضًا أننا نعلم سر الرجل ولن يستطيع الإستعانة بغيرنا الآن .

جلس أكثينو على أقرب مقعد له وقد بدا أنه يفكر بالأمر ، مما جعل بوريجو يصب لهما كأسين ليناوله إحداها قائلاً فى إهتمام :

- هيا يا أكثينو ... فالأمر لا يحتاج إلى كل هذا التفكير ، ومن يدرى ربما تكون تلك العملية هى فرصة العمر بالنسبة لنا ونتقاعد بعدها لنؤسس عمل مشروع ، بعيدًا عن كل تلك المخاطر التى نتعرض لها مع كل عملية .

فكر أكثينو قليلاً قبل أن يتطلع إلى بوريجو هاتفًا فى توتر:

- حسنًا .. سنقوم بتلك العملية ، من يدرى...؟!، ربما بالفعل تكون الأخيرة .

****

نهض إنريكى بعد إنتهاء الإجتماع مع مهندسى المشروع وهو يُنحى التصميمات من أمامه هاتفًا :

- عظيم جدًا... لقد أنجزتم التصميمات المطلوبة فى وقت قياسى، تستطيعون البدء فى التنفيذ فى أقرب وقت حتى نحافظ على ذلك المعدل من الإنجاز، فأنا أريد إنجاز ذلك المشروع حتى قبل الوقت المحدد لذلك، فالمنافسة فى مجالنا قوية كما تعلمون، وسُمعة شركتنا دائمًا فى المقدمة، ولن نتنازل عن ذلك..

نهض الجميع بدورهم للإنصراف ولكن إنريكى إستوقف خوليو بإشارة من يده قائلاً :

_ فلتبق أنت يا خوليو، أريدك فى أمر آخر.

أومأ خوليو برأسه فى حين إتجه إنريكى إلى مكتبه، وأشار لخوليو بالجلوس وهو يستقر خلف مكتبه، بعد أن غادر الجميع الغرفة قائلاً:

_ هناك مشروع جديد أريدك أن تعمل عليه يا خوليو.

ابتسم خوليو فى هدوء قائلاً:

_ وأنا مستعد دائمًا يا سيدى.

إعتدل إنريكى على مقعده قائلاً فى جدية:

_ الأمر يختلف هذه المرة يا خوليو، فالمشروع المطلوب هذه المرة له أهمية خاصة، لذلك فأنا أريدك أن تتفرغ له تمامًا وتوليه عنايتك كاملة.

تمتم خوليو فى إهتمام:

_ وما هو ذلك المشروع الذى يتجاوز فى أهميته بقية مشاريع الشركة..؟!

تراجع إنريكى وهو يشير لخوليو قائلاً:

_ قصر الأميرة ماريا، إبنة الدوق ليونسيو غونزاليس، دوق مدينة سيدونيا، فالقصر بحاجة إلى أعمال ترميم وتجديد ليكون جاهزًا لإستقبال الأميرة بعد زواجها فى أغسطس القادم.

عقد خوليو حاجبيه فى إهتمام وهو يهتف:

_ مهلاً ... فأنا أعرف ذلك الدوق ، فأخباره وأخبار إخوته من أبناء الدوقة الحمراء تملأ الصحف، فوالدته الدوقة لويزا إيزابيل ألفاريز دى توليدو، الدوقة الحادية والعشرين لمدينة سيدونيا، والتى سميت بالدوقة الحمراء لتمردها ضد فرانكو الجنرال الذي حكم إسبانيا بقبضة من حديد فى نهاية الحرب الأهلية الإسبانية التي دارت رحاها في ثلاثينيات القرن العشرين.

لقد كانت حياةتلك الدوقة مثيرة للجدل فى حياتها وبعد موتها أيضاً بعد أن أوصت بكل أصولها لمؤسسة كازا ميدينا سيدونيا للمحافظة على التراث المتوارث بعد أن حرمت أولادها من تلك الأصول مما جعلهم يلجأون للمحاكم لحسم الصراع مع تلك المؤسسة من أجل إستعادة حقوقهم فى تلك الأصول .

إبتسم إنريكى فى رضا وهو يميل على مكتبه مُشيرًا إلى خوليو :

- أحسنت يا خوليو .. لذلك السبب إخترتك أنت دون غيرك لتلك المهمة ، فأنت أنسب مهندس عندى لذلك المشروع، لثقافتك وسعة أُفقك ، بالإضافة لتعاملك مع عملك بروح فنان ، مما يبث الروح فى جميع تصاميمك التى دائمًا ما ينبهر بها العملاء ، وهذا هو المطلوب فى ذلك المشروع بالذات ، فالحفاظ على روح المكان وطابعه هو أول ما يجب أن نفكر به قبل البدء فى أية خطوات .
- بالطبع يا سيدى ، فتلك الأماكن عمرها يتجاوز مئات السنين ، لذلك يتم التعامل معها بأسلوب خاص ومختلف .

أومأ إنريكى برأسه موافقًا :

- لذلك سوف تسافر إلى سانلوكار دى بارميدا فى نهاية الأسبوع القادم لمعاينة القصر ومقابلة الدوق ليونسيو وإبنته ،لوضع تصوراتك بشأن المشروع وآلية تنفيذه .

نهض خوليو للإنصراف ولكن إنريكى إستوقفه قائلاً:

- خوليو ... لست بحاجة للتأكيد على أهمية ذلك المشروع ، ليس فقط من أجل الشركة ، ولكن الأمر أيضًا يحمل طابعًا شخصيًا ، فالدوق صديق مقرب للسنيور فرانثيسكو مالك الشركة ، لذلك إختار الدوق شركتنا من بين العديد من الشركات الهندسية الكبرى للقيام بتلك المهمة ، وهو ما يُلقى على كاهلك مسئولية كبيرة لإخراج المشروع على أفضل وجه ممكن ، وربما يكون له الأثر على تقدم مستقبلك المهنى بالشركة .

تطلع إليه خوليو وعلى وجهه إبتسامة واثقة وهو يتمتم فى هدوء :

- لا تقلق يا سيدى ، سننجز الأمر بأفضل مما يتوقعه الدوق نفسه.

قالها وغادر المكتب وهو يفكر بتلك المهمة الخاصة ..

أو بمعنى أدق .. ذلك التحدى الذى ربما يؤثر على مستقبله ..

فى سانلوكار دى بارميدا

****

جلس أكثينو وبوريجو فى غرفتهما بأحد الفنادق العتيقة فى سانلوكار والتى تقع على أطراف المدينة ، فى مواجهة ذلك الرجل الوقور الذى بدا فى منتصف العقد الخامس من عمره ، حيث كان الرجل غاضبًا وهو يلوح بيده ليدق بهما على تلك الطاولة التى جمعتهم وهو يهتف :

_ خمسة ملايين يورو ..؟!! ، هل جننتم ..؟!

تراجع أكثينو قائلاً فى هدوء:

_ لا تنس أننا سنخاطر مخاطرة كبيرة من أجل سرقة تلك اللوحات ، فى حين ستظل أنت بمأمن وبعيدًا عن أى مسئولية ، وهذا المبلغ ليس كبيرًا أمام تلك المخاطرة.

_ أية مخاطرة تلك ..؟!، لقد وضعت لكم خطة مُحكمة للتنفيذ ، كما أنه لا أحد يعرفكم فى سانلوكار ، وهذه ليست المرة الأولى التى تقومون فيها بسرقة شئ من القصر كما أنها ليست المرة الأولى التى تتعاونون معى فيها .

هتف بوريجو فى غضب :

_ تبًا لك أيها العجوز ... ، ففى المرة السابقة لم نكن نعلم بأهمية وقيمة ما سرقنا ولا قدر المخاطرة فى تلك العملية إلا من الصحف التى تحدثت وقتها عن ماهية تلك المسروقات وقيمتها ، فى حين أنك أوهمتنا وقتها أنها مجرد تحف فنية قيّمة .

_ ولكن الأمر يختلف هذه المرة ، فسوف أُمهد لكما الطريق ، وسيكون هناك من توجَه إليه الأصابع الإتهام بعيدًا عنكم ، وكل ما ستفعلونه إتباع خطتى وحسب ، لذلك لن توجد هناك أية مخاطرة تُذكر كما تتوقعون .

عقد أكثينو حاجبيه متمتماً فى إستفهام :

_ ماذا تقصد بأنه سيكون هناك من توجَه إليه أصابع الإتهام ..؟

إبتسم العجوز فى خُبث قائلاً :

_ لا تشغلوا تفكيركم بهذا الآن ، لقد رتبت كل شئ ، المهم أن تنفذوا الخطة التى وضعها جيدًا .

تبادل أكثينو وبوريجو النظر لبعضهما البعض فى شك ولكن بوريجو لم يلبث أن هتف فى تحدِ:

_ إسمعنى جيدًا أيها العجوز ، سوف ننفذ هذه العملية مقابل الخمسة ملايين يورو ، دون أن ينقص يورو واحد من المبلغ ، ولا يهمنا بعدها تلك الخطة الحقيرة التى ستضعها ، ولا من ستوجَه إليه أصابع الإتهام ، فما يهمنا هو المال ، والمال فقط ، والذى ستجنى أنت أضعاف أضعافه حين تبيع تلك المسروقات .

قالها وإستدرك فى لهجة تهديد لم تخف على العجوز :

_ وتذكر جيدًا أنك لا تستطيع الرفض ، فلن تستطيع اللجوء لغيرنا ، فقد أصبحنا نعلم كل شئ .

فهم العجوز ما يرمى إليه بوريجو ، ولكن ملامحه ظلت ثابتة لم تتغير وهو يردف فى هدوء :

_ حسنًا .. سوف أدفع لكم نصف المبلغ قبل العملية كالعادة ، والنصف الآخر بعد التنفيذ ، ولكن عندى شرط وحيد.

_ وما هو ذلك الشرط.

_ سيكون التنفيذ وفقًا للخطة التى أضعها دون أن تحاولا حتى أن تستخدما رأسيكما فى التفكير ، فخطوة واحدة غير مدروسة من الممكن أن تتسبب فى فشل العملية وتعريضنا جميعًا للخطر.

أومأ أكثينو برأسه وهو يردف فى سخرية :

_ لك هذا أيها العجوز ، ما دمت ستدفع لنا .

تجاهل العجوز سخرية أكثينو وهو يُخرج ورقة متوسطة الحجم من جيب معطفه تشبه الخريطة اليدوية ، ليبدأ لهم فى شرح خطته ...

خطة سرقة القصر.

الفصل الثانى

****

إن الحياة ليست أدوار جامدة يعيش الإنسان ليؤديها كما هى ، ليكون نسخة مكررة من غيره ، وكأن الناس قوالب جامدة تحركها يد خفية كقطع شطرنج جامدة لا حياة فيها ، يتغيرون ويتبدلون كتلك القطع ، يأتون الحياة ويغادرونها دون أن يُحدثوا تغييرًا أو يتركوا أثرًا، وكأن الحياة كتاب مكرر الصفحات لا يتغير ولا يتبدل

وصل خوليو إلى سانلوكار دى بارميدا قبل يومين من ميعاده المحدد له لمعاينة قصر دونا ماريا ومقابلتها مع والدها الدوق ليونسيو ، حيث وصل إلى المدينة فى صباح يوم الثلاثاء بعد رحلة إستمرت قرابة الثلاث ساعات قضاها خوليو فى القيادة بعد أن فَضَّل السفر بسيارته ، وبالرغم من ذلك إلا أنه لم يهدأ ، فقد كان بطبعه دائب النشاط ، لذلك فما إن إستقر بفندق بارميدا وترك حقائبه وتناول إفطاره ، حتى إنطلق فى جولة للتعرف على المدينة .

كان خوليو قد وضع لنفسه خطة لزيارة بعض معالم المدينة الرئيسية فور معرفته بتكليفه بذلك المشروع ، فقد كان يريد أن يتعرف على المدينة وطباعها وتاريخها ، وأن يتعرف على روح المكان وسماته ، لذلك فقد قضى اليومين السابقين على الميعاد المحدد له لمعاينة القصر فى زيارة المعالم الرئيسة للمدينة ك قلعة سانتياغو وحصن سان سلفادور وقلعة الروح القدس وسوق لاس كوفاشاس وغيرهم .

وبالرغم من مجهود السفر إلا أن خوليو كان يشعر بمتعة عجيبة ، فقد كان بطبعه يكره المكاتب المغلقة والروتين اليومى ، ويعشق العمل الحر والإنطلاق، دائمًا ما كان يجد سعادته فى مخالفة المألوف وكسر القواعد الجامدة.

كان يؤمن بأن الحياة ليست أدوار جامدة يعيش الإنسان ليؤديها كما هى ، ليكون نسخة مكررة من غيره ، وكأن الناس قوالب جامدة تحركها يد خفية كقطع شطرنج جامدة لا حياة فيها ، يتغيرون ويتبدلون كتلك القطع ، يأتون الحياة ويغادرونها دون أن يُحدثوا تغييرًا أو يتركوا أثرًاوكأن الحياة كتاب مكرر الصفحات لا يتغير ولا يتبدل .

كان يرى الحياة كالبحر الواسع فى كل لحظة تتبدل أمواجه ، تموج بالحياة تارة ، فتتدافع ترى واحدة تلو أخرى ، وكأنهم يتسابقون فى رحلة أبدية ، ويصفو تارة فلا ترى أجمل ولا أرق منه ليأخذك معه فى عالم بلا حدود ويوقظ بداخلك أجمل فيك لينبض قلبك بنبض الحياة ، وتارة يغضب ويهدر لتعلو أمواجه كالجبال ليُذكرك بضعفك وأنك مهما تجبرت وعلوت فما أنت إلا بشر ضعيف ناصيته بيد من خلقه وخلق الكون وسخره.

فحياتنا كبحر نتقلب بين أمواجه من حال إلى حال ، نشتاق دائمًا إلى شاطئ نرسو عليه ونُلقى عليه رحالنا ليضم ما تبقى منا .

كان يشعر أن ذلك المشروع مختلف عن غيره، ربما بسبب الطابع الخاص له ، ففى تلك المرة لن يتعامل مع تصميمات جامدة ، وإنما مع قطعة فنية تشعر معها برائحة السنون وتقلبات الزمن ، قطعة فنية لا تحتاج إلى مهندس بقدر ما تحتاج إلى فنان ، وربما ما يميز ذلك المشروع عن غيره هو ذلك الشغف الذى يشعر به يستيقظ بداخله ليدفعه دفعًا ....

من يدرى ...؟!

ربما..

****

غادر سليم ومروان فندق بارميدا الذى وصلوا إليه بالأمس فى طريقهم إلى قصر دوقات مدينة سيدونيا وذلك لمقابلة الدوق ليونسيو دوق مدينة سيدونيا وفقًا للميعاد الذى حدده الأخير للإطلاع على المخطوطات المحفوظة لديه .

كان سليم يشعر بالحماس الشديد لهذه المقابلة ولكنه لم يدرى ما سبب ذلك القلق والخوف الذى يعتريه ، أما مروان فقد كان يدرك ما يشعر به صديقه ، لذلك فقد حاول أن يُخفف من توتره ، فهتف فى مرح :

- لا أدرى لماذا أصريت على أن نستيقظ مبكرًا للذهاب إلى القصر بالرغم من أن ميعاد المقابلة فى الخامسة مساءًا ، فقد وصلنا بالأمس فقط بعد رحلة مُرهِقة ، أليس الأولى أن نتجول قليلاً فى المدينة ونستمتع بتلك المناظر الطبيعية .

أشار إليه سليم قائلاً

- بالتأكيد نحن لن نذهب للقصر فى التاسعة صباحًا من أجل المقابلة ، فالقصر نفسه مُقسم بعد أن تبرعت به الدوقة الحمراء لمؤسسة كازا ميدينا سيدونيا بما يحتويه من أرشيف يضم أكثر من ستة ملايين وثيقة ومخطوطة تاريخية ، كما أن جزء من القصر قد تم تقسيمه إلى نُزل وكافيتريا وهذا الجزء مفتوح للعامة وكذلك جزء من حدائقه ، ويمكن التجول في القصر من قبل الجمهور في الجولات المصحوبة بمرشدين .

هتف مروان بسخرية:

_ إذن سنقضى اليوم فى جولة سياحية داخل أرشيف .. يالها من رحلة سياحية ممتعة .

_ سوف آخذك فى رحلة سياحية لمعالم المدينة وشواطئها المميزة ، ولكن بعد أن ننتهى من مهمتنا أولاً ، فنحن لم نأتى إلى هنا من أجل قضاء وقت ممتع فى التنزه .

ضحك مروان وهو يدفع سليم فى مرح هاتفًا:

_ سوف أعتبر ذلك وعد ، فلن أبرح تلك المدينة قبل أن تفى به.

إبتسم سليم وهو يعبر الشارع مع مروان :

_ إذن أسرع قبل أن أُعيد التفكير فى ذلك العرض ، فأنت تثر.....

قطع سليم حديثه فجأة على صرير سيارة عنيف حاول قائدها إيقافها فى مهارة قبل أن تصطدم بسليم صدمة خفيفة ولكنها كانت قد ألقته أرضًا وسط ذعر مروان الذى أسرع إليه مع قائد السيارة ليطمئن عليه هاتفًا :

_ سليم ..... هل أنت بخير..؟!، أأصابك سوء..؟!

نهض سليم ليقف مستندًا إلى مروان وهو ينظف ملابسه قائلاً فى توتر:

_ إطمئن يا صديقى .. فما زلت بخير، لقد كانت الصدمة خفيفة .

تنهد قائد السيارة وهو يشعر بإرتياح بعد أن إطمئن أن سليم بخير، فى حين إستدار إليه مروان هاتفًافى غضب :

_ ألا تستطيع النظر أمامك ، إن كنت لا تجيد قيادة سيارة فلا تُعرض حياة الآخرين للخطر.

إبتسم السائق فى هدوء وهو يتمتم فى سخرية:

_ لولا أنى أجيد القيادة كما تجيد أنت الكلام يا هذا لكان صديقك الآن فى حالٍ أسوأ ، فأنتم تسيرون فى الشارع وكأنه متنزه عمومى وليس طريق عام يجب الإنتباه قبل عبوره.

حاول مروان الرد عليه ولكن سليم إستوقفه بإشارة من يده قائلاً بالعربية :

_ لا داعى للخوض معه فى شجار يا مروان ، فالرجل يبدو عليه أنه وقح ولن يعترف بخطئه ونحن على عجلة من أمرنا ، المهم أنى بخير الآن .

فوجئ الإثنين بالسائق الذى لم يكن سوى خوليو وهو يضحك هاتفًا بسخرية وبالعربية أيضًا :

_ أنا أيضًا على عجلة من أمرى يا هذا ، ولكن نعتك لى بالوقح بلغة تخيلت أنى لن أفهمها ليس من الأخلاق أو الشجاعة فى شئ ، وخصوصًا أنك عربى كما يبدو وتفهم ذلك.

قالها خوليو وهو يعود لسيارته وينطلق بها فى طريقه لقصر دونا ماريا على ساحل الأطلسى ولكنه قبل أن ينطلق أشار لهما هاتفًا بصوت عالٍ:

_ إعتنى بنفسك يا صاح ، ولا تنس أن تراقب الطريق جيدًا قبل عبوره كما علّموك فى الصغر.

ظل مروان وسليم واقفين وقد عقدت الدهشة لسانهما حتى إنفجر مروان فى الضحك بهستيريا وسليم ينظر إليه بغضب قائلاً

_ على ماذا تضحك ..؟!

أشار إليه مروان وهو يحاول أن يتوقف عن الضحك قائلاً:

_ لا شئ .. لا شئ .. دعنا نُكمل طريقنا فقد تأخرنا بالفعل ، ولا زال أمامنا يومًا طويلاً.

****

بمجرد عبور الباب الخشبي الضيق لأرشيف بيت مدينة سيدونيا الذى يُعَد جزء من قصر جوزمان شعر سليم ومروان برائحة شديدة من الورق ، كان المكان مليئًا بالأرفف القوية التي تدعم مئات الآلاف من المخطوطات والوثائق ، والتي تتدلى منها الأوراق المرقمة لتسهيل عملية البحث بالنسبة للباحثين الذين يزورون الأرشيف للإستفادة من تلك الوثائق فى أبحاثهم.

كان الأرشيف يحوى الملايين من الوثائق والمخطوطات ذات الأهمية التاريخية والذى يعتبر أحد أهم المحفوظات الخاصة فيأوروبا ، مما جعل مروان يتمتم فى دهشة :

- يا إلهى ..!! ، كل تلك المخطوطات والوثائق والتى يحتويها ذلك الأرشيف كانت حتى وقت قريب ملكية خاصة لعائلة الدوق .

أشار إليه سليم فى إهتمام وهو يتفحص الأسماء التى دُونت على تلك الوثائق المصفوفة :

- لم تكن تلك المخطوطات لتظهر للنور لولا جهود الدوقة لويزا إيزابيل ألفاريز والدة الدوق ليونسيو ، فكل تلك الوثائق كانت مبعثرة فى مخازن ، ومعظمها كان مُلقى في مستودع أثاث في مدريد ، متأثرًا بالرطوبة ، حتى إكتشفتهم الدوقة وقامت بنقلهم إلى هنا في عام 1960 فى محاولة منها للمحافظة على ذلك التراث ، كما قامت بتخصيص جزء من القصر لإنشاء هذا الأرشيف، وتبرعت به مع القصر إلى مؤسسة كازا ميدينا سيدونيا للمحافظة عليه .

هتف مروان وهو يتطلع إلى محتويات الأرشيف :

- واضح أن المرأة قد بذلت جهودًا جبارة فى ذلك الأرشيف، فأنا أرى أنه قد تمت أرشفتها والمحافظة عليها بشكل جيد بالرغم من العدد الهائل لتلك الوثائق والمخطوطات ، مما يساعد الباحثين فى ذلك المجال كثيرًا ، ويحافظ على ذلك الكنز من الضياع والإندثار.

أومأ سليم برأسه قائلاً:

- بالفعل لقد بدأت الدوقة بعملية أرشفته بنفسها ،وقد استغرقت عشر سنوات لتصنيف تلك الوثائق باليد فقط ، في وقت لم تكن هناك أجهزة كمبيوتر ، ولم تكتفِ المرأة بذلك ، فقد دفعها ال تحقيق في وثائق عائلتها إلى كتابة العديد من الكتب والمقالات المثيرة للجدل ، والعديد من المنشورات الذاتية ، التي كشفت فيها أنه تم اكتشاف أمريكا قبل كولومبوس بوقت طويل من قِبل البحارة العرب والأندلسيين أو المغاربة الذين يتاجرون بالموانئ في البرازيل وجوايانا وفنزويلا ، وقد نشرت آرائها تلك فى أطروحتها في عام 1992 في كتابها (لم يكن نحن) ، و (أفريقيا مقابل أمريكا) .

تطلع مروان إلى النوافذ المميزة للمكان والتى تتسرب من خلالها أشعة الشمس بشكل يبعث فى النفس راحة عجيبة وكذلك تلك المناظر الطبيعية التى يطل عليها المكان والتى تظهر من خلال تلك النوافذ الأمر الذى يعطى المكان طابع خاص ، مما جعل مروان يتمتم فى إعجاب :

- أتعرف ..؟! ، إن التصميم الخاص للمكان يبدو وكأنه يبعث الروح فى تلك الوثائق القديمة ، فلا تملك إلا أن تشعر بمزيج عجيب من رائحة الماضى والزمن الضاربة فى القِدم ورائحة الحياة التى تتجدد فى كل لحظة والتى ينبض بها ذلك المكان بشكل غريب .

إستدار إليه سليم وهو يتأمل بدوره ذلك المنظر :

- بالفعل يا مروان ، فللنوافذ الكبيرة تُظهر منظر بانورامي رائع للمدينة ، والذي يكتمل باللون الأخضر من أشجار الصنوبر في محمية دونيانا الطبيعية والتى تقع عند الضفة اليمنى لنهر غوادالكويفير أو الوادي الكبير في مصبه على المحيط الأطلسي.

تمتم مروان مبهوراً :

- تبدو من هنا رائعة الجمال ، لذلك سوف تكون تلك المحمية أول مكان سنزوره فور إنتهائنا من مهمتك تلك .
- أعدك أن تكون رحلة مميزة ، فستكون تلك المحمية من أفضل الأماكن التى ستزوها فى حياتك .
- الموقع هنا متميز بالفعل .
- أتعرف أن هذا الموقع المتميز والمشمس على وجه التحديد هو الذي يمنع حشرات إكسيلوفاج أو آكل الخشب من القيام بعملها ، كما أن الرفوف المصنوعة من خشب الصنوبر الكندي ، المناعي لهذه الآفات ، تساعد أيضًا في حماية هذا الكنز.

إستدار إليه مروان وهو يهتف فى دهشة :

- أين ومتى تعلمت كل هذا يا رجل ..؟!! ، فأنا أشعر وكأنى أتجول مع موسوعة متحركة.

ضحك سليم قائلاً فى هدوء :

- منذ أن علمت بتلك المقابلة وأنا أقرأ جيدًا عن كل ما يخص تلك المدينة وذلك القصر بما يحتويه ، فلم أعتد زيارة مكان قبل أن أعلم عنه كل شئ ، حتى طباع أهله .

أشار مروان إلى تلك الرفوف التى إمتلأت بالوثائق والمخطوطات قائلاً :

- تُرى ما الذى تتناوله كل تلك الوثائق ، وكيف يمكن الإستفادة منها..؟!
- تلك الوثائق تتناول الكثير مثل وصفات ، كتب محظورة وأهمهم تلك الكتب التى حظرتها محكمة التفتيش ، رسائل ، تحالفات وخيانات ، الحياة اليومية للنبلاء والمبتذلة منذ أكثر من ثمانية قرون ، وربما بالبحث فيها تتجلى حقائق كثيرة ربما ما زالت مجهولة حتى اليوم ، مثلما حدث مع الدوقة حين إكتشفت من خلال تلك الوثائق أن كولمبوس لم يكن هو من إكتشف أمريكا ، فالتاريخ ما زال يخبئ الكثير يا مروان .

ظل الإثنين يتجولان بين جنبات الأرشيف وسليم يتطلع بإهتمام لعناوين الوثائق وموضوعاتها حتى إنتهيا من جولتهما فإتجها للكافيتريا الملحقة بالقصر ليتناولا قهوتهما قبل أن يستكملا الجولة داخل القصر ضمن مجموعة أخرى من الزوار مع أحد المرشدين المتطوعين ، ومروان يشير لسليم متمتمًا :

- كنت أتخيل ذلك القصر كبقية القصور الكلاسيكية القديمة التى نعرفها ، وخاصة القصور فى أوروبا ، إلا أنى فوجئت به ذات طابع معمارى بسيط جدًا ، حتى جدرانه الخارجية بيضاء بسيطة كبيوت الأندلس القديمة .
- بالفعل .. لقد لاحظت أن القصر مختلف عن باقى قصور النبلاء التى تتميز بها تلك الحقبة ، ربما هذا ما سنعرفه عندما تصمت قليلاً لنصغى إلى الرجل .

إرتفع صوت المرشد الذى إصطحب مجموعة الزوار بدءًا من ساحة القصر الخارجية وهو يشير للقصر قائلاً :

- قصر جوزمان أو قصر دوقات مدينة سيدونيا هو جزء من مجمع سانتيكار دي باراميدا التاريخي للفنون ، والذى يضم حاليًا مؤسسة كازا ميدينا سيدونيا ، وهى منظمة أنشأتها في عام 1990 السيدة لويزا إيزابيل ألفاريز دي توليدو ، الدوقة

الحادية والعشرين لمدينة سيدونيا ، و هدفها الرئيسي هو الحفاظ على الأصول التي تتكون منها ونشرها وهى قصر جوزمان ، بما يحتويه من تراث وأثاث وكذلك حديقته وما يحتويه من أرشيف تاريخى يتألف من أكثر من ستة ملايين وثيقة.

إقتربت المجموعة من القصر والمرشد يستدرك :

- تم بناء القصر على طراز عصر النهضة من قِبَل منزل مدينة سيدونيا في القرن السادس عشر ، على هيكل ما يبدو أنه رباط أندلسي قديم ويعنى مكان يستخدم كحصن أو للحراسة ويكون به مصلى أو مسجد ، والقصر عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق ، وقد بُنى القصر تحت تأثير بعض عناصر العمارة فى الفترة المرابطية والتى مزجت بين الطابع المغربي و الطابع الأندلسي المتميز ، وقد تم تعديل المجموعة بأكملها وتوسيعها على مر القرون حتى الوقت الحالي، كما تم تصميم الحديقة المحاطة بجدران من العصور الوسطى ، لتجمع بين النوافير والتماثيل وتحوطات من خشب البقس، بالإضافة إلى حديقة غابة الأقنثة المحيطة بالقصر والتى تم إنشاؤها على ما كان في واد ى سانلوكار القديم ، والذي يرتكز عليه جدار القصر ، كما يشغل الجزء العلوى من الحديقة الحدائق الأندلسية النموذجية والتى وضعت على الطراز الأندلسى القديم .

وصلت المجموعة إلى داخل القصر والمرشد يُكمل :

- في التصميم والبناء الخاص بالقصر ، شارك كل من ألونسو دي فاندلفيرا ، خوان اوفيدو ، دومينيكو فونتانا ، من بين آخرين ، تتداخل تصاميمهم مع خطوط الفن المُدجن الخاصة بالبناء القديم ، وهو فن يجمع بين الفن المعماري الإسلامي الأندلسي و الفن الإسباني المسيحي ويمثل ظاهرة اجتماعية وفنية على حد سواء ميزت فن العمارة الإسباني بشكل خاص و الأوروبي بشكل عام.

سنجد فى كل جزء بالقصر قطع دينية وفيرة من دير لا ميرسيد ، غرف مليئة بالفن مع نسيج فريد ، منحوتات ، ولوحات.

ظلت المجموعة تتجول داخل أروقة القصر حيث شاهدوا المكتبة الحديثة للقصر والتى يعود تاريخها للقرن السابع عشر ، وكذلك غرف القصر المهيئة بالقطع الفنية واللوحات ، مما جعل القصر أقرب لمتحف منه كقصر للدوقية .

إنتهت الجولة بالقصر فى تمام الرابعة مما جعل مروان يهتف :

- أخيرًا... لقد ظننت أن الرجل لن يصمت أبدًا ، فالقصر يعج بالقطع الفنية التى تحتاج أسابيع للتحدث عنها هذا ، بالإضافة إلى تاريخ كل قطعة وظروفها وتاريخ القصر ودوقاته ، أكاد أشعر وكأنى خرجت للتو من كتاب للتاريخ .

ضحك سليم وهو يشير إليه قائلاً:

- هذه الجولة مجرد جولة تعريفية بسيطة لزوار القصر ، فتاريخ القصر بما يحتويه يحتاج لسنوات من البحث والدراسة.

هتف مروان مستنكرًا:

- ألا تمل من البحث والدراسة وهذا الكم من المعلومات ، لقد أوشكت أن أكره التاريخ يا رجل من كثرة ما دخل رأسى اليوم ، لا أعرف لما طاوعتك بالمجئ إلى هنا .
- لا تتذمر هكذا فقد إقترب ميعادنا مع الدوق .
- لن أتحرك خطوة واحدة قبل إحتساء فنجان من القهوة ، فأنا أشعر وكأن رأسى قد تعطلت عن العمل .
- حسنًا .. حسنًا .. سنذهب للكافيتريا الآن حتى يحين موعدنا مع الدوق .
- ولكننا الرابعة الآن ويجب أن نكون هناك فى تمام الخامسة .
- الدوق موجود بالقصر ، فهذا القصر هو قصر دوقات مدينة سيدونيا كما تعلم.
- ولكننا تجولنا بالقصر ، وهو عبارة عن مزار ولم أقابل أى دوقات فيه ، فكيف يعيش الدوق هنا.
- ما رأيته ليس إلا الجزء المفتوح للجمهور من القصر وحديقته ، أما الجزء الآخر فهو حيث يعيش دوق سيدونيا .

تمتم مروان بسخريته المعتادة :

_ يبدو أنه سيكون يومًا طويلاً بصحبتك ...

من يدرى...؟!!

ربما...

****

وصل مروان وسليم إلى حيث مقر إقامة الدوق ليونسيو فى قصر دوقات مدينة سيدونيا فى تمام الخامسة ليستقبلهم مدير المنزل سنيور جاياردو الذى رحب بهم قائلاً:

_ سيكون سيدى الدوق معكم بعد قليل .

قالها جاياردو لينصرف فى حين تابعه مروان ببصره حتى غاب وهو يُردف :

_ أكره تلك القواعد والتقاليد الجامدة التى تجعل بعض الناس يتعاملون وكأنهم آلات مُبرمَجة ، يحسبون حساب للحركة والكلمة حتى الإبتسامة بحساب ، كيف يعيش هؤلاء الناس حياتهم فى ظل تلك الآلية والجمود .

أشار إليه سليم وهو يتخذ مقعدًا قائلاً :

_ ربما ظروف نشأتهم وبيئتهم هى ما جعلتهم ينشأون هكذا، أو ربما هى طبيعة عملهم التى تحتم عليهم الإلتزام بتلك القواعد والبروتوكولات الجامدة ، ولكن هذا لا ينفى أبدًا أن خلف تلك الأقنعة هناك حياة ربما لا ندرى عنها شئ ، فلا تحكم على المظاهر يا مروان ، فمهما كانت طبيعة الإنسان وبساطته تظل هناك حياة أخرى يُخفيها ولا يعلم عنها أحد شئ ، دائمًا هناك عالم خاص لكل منا ، لا يراه الآخرون حتى أقرب الناس إلينا .

عقد مروان حاجبيه فى حيرة قائلاً:

_ ربما .. ولكن يظل فى وجوه الناس شئ غريب ،شئ لا يستطيع الكذب ولا التجمل، شئ يخبر الآخرين بأدق أسرارنا ، شئ يحتاج فقط لمن يُحسن رؤيته ، إنها العيون يا

صديقى ، نوافذ الأروح وكواشف القلوب ، فمهما كانت الأقنعة مُتقنة إلا أنها تظل دائمًا بلا عيون.

ضحك سليم قائلاً فى هدوء :

- لقد بدأت أقلق عليك يا مروان ، فقد أصبحت فيلسوف بشكل مفاجئ ، ربما يكون ذلك من تأثير جولة اليوم .

وقبل أن يهم مروان بالرد فوجئ الإثنان بالدوق وهو يرحب بهما معتذرًا عن تأخره قائلاً :

- آمل ألا أكون قد تأخرت عليكما كثيرًا .

نهض سليم ومروان لمصافحة الدوق والتعريف عن نفسيهما ، والذى تطلع إلى سليم قائلاً :

- لقد حدثنى الأستاذ أندريس عنك كثيرًا ، يبدو أنه معجب بك وبتفانيك من أجل رسالتك ، وإصرارك من أجل تحقيق ما تريد ، مما أثار فضولى لمقابلتك وتقديم ما أستطيع من مساعدة .
- هذا كرم منك سيدى الدوق ، وخصوصًا وأنك عاشق للتاريخ أيضًا فضلاً عن كونك أستاذًا فيه .

إبتسم الدوق من لباقة سليم ، مما جعله يدعوهم للجلوس ، ليدور الحوار بينه وبين سليم فى موضوع رسالته والتحديات التى يواجهها ، ثم يتطرق لموضوع المخطوطة التى يسعى إليها سليم ، ومروان يتابع الحديث بينهما حتى أتى جاياردو ليخبر الدوق بقدوم المهندس المسئول عن مشروع صيانة وتجديد قصر دونا ماريا إبنة الدوق ، مما جعل الدوق يهتف :

- لا أدرى كيف نسيت هذا الموضوع ، فتخلُف ماريا عن الحضور من أمريكا أربك لى كل مواعيدى وجعل كل شئ على كاهلى وحدى .

تمتم جاياردو فى آلية :

- هل نعتذر له سيدى الدوق ..؟
- بالطبع لا ، فقد أتى الرجل من مالاجا من أجل ميعاد اليوم ، وليس من الصواب تركه يعود دون لقاؤه ، دعه يتفضل .

أومأ جاياردو برأسه وذهب لدعوة المهندس الذى لم يكن سوى خوليو ، والذى إستقبله الدوق بترحاب شديد ودعاه للإنضمام إليهم وسط دهشة مروان وسليم الذين تذكراه حين عرّفهم الدوق ببعضهم البعض مما جعل سليم يهتف فى دهشة :

_ أنت ..؟!!

تطلع إليه خوليو فى دهشة ، مما جعل الدوق يتساءل عما إذا كانوا يعرفون بعضهم قبل اليوم ، فقص عليه مروان ما وقع بينهم صباح اليوم من حادث السيارة ، الأمر الذى جعل الدوق ينفجر ضاحكاً وهو يهتف :

_ يالها من مصادفة عجيبة تلك التى جمعتكم اليوم ، وربما من باب الصدفة أيضًا أن سنيور خوليو أيضًا من أصل عربى كما أخبرنى سنيور فرانثيسكو مدير الشركة .. أليس كذلك سنيورخوليو .

أومأ خوليو برأسه فى ضيق لم يخف على الدوق قائلاً :

_ هذا صحيح سيدى الدوق .

كان الدوق فى العقد الخامس من عمره ، له شخصية بسيطة مرحة بالرغم من وقاره وعمق شخصيته وثقافته الواسعة ، يتعامل بتلقائية شديدة بعيدًا عن الرسميات والشكليات ، مما جعل الشباب يشعرون معه بالراحة وبقربهم منه بالرغم من أنها المرة الأولى التى يقابلونه فيها ، وقد دعاهم جميعًا لإحتساء القهوة فى غرفة مكتبه .

كانت غرفة المكتب بسيطة بالرغم من أنها تحوى مكتبة كبيرة جمعت عشرات من الكتب القديمة والحديثة ، وقد زينت حوائطه بالعديد من اللوحات الفنية ذات القيمة التاريخية الكبيرة ، وذلك المكتب البسيط والمدفأة التى كان ينبعث منها دفء يُحاكى ذلك الدفء الذى يُشعرك به المكان ، لتصنع لوحة رائعة مع تلك النافذة الكبيرة التى كانت تطل على حديقة القصر التى تزينت بالأشجار والورود من مختلف الأنواع .

إستقر الجميع بغرفة المكتب بجوار المدفئة يحتسون القهوة ، والدوق يحاول الإعتذار لخوليو عن ذلك الموقف الذى تسبب فيه غياب ماريا ، ولكن خوليو أبلغه أنه لم يتضايق بل بالعكس ، فحضوره إلى سانلوكار كان فرصة رائعة للتعرف على معالم المدينة وزيارتها ، وقبل أن ينتهى

الجميع من إحتساء قهوتهم فوجئوا ب جاياردو يستأذن ليهمس فى أذن الدوق بعدة كلمات ويغادر بعدها ، مما جعل الدوق يتطلع إلى ضيوفه قائلاً :

- يبدو أننا محظوظون اليوم ، فستضطرون لقضاء الليلة معنا ، فقد تسببت الأمطار والرياح الشديدة فى غلق الطريق بسبب سقوط إحدى الأشجار الضخمة ، ومن الصعب فعل شئ الآن بسبب سوء الأحوال الجوية ، لذلك سوف تبقون معنا الليلة ريثما يستطيعون تحريكها فى الصباح .

تمتم خوليو فى أدب :

- نشكرك على كرمك سيدى الدوق .

ضحك الدوق وهو يهتف قائلاً:

- بالعكس فأنا الذى يجب أن أشكركم ، فقد كنت سأقضى هذه الليلة وحيدًا .

قالها الدوق ثم تطلع إلى خوليو قائلاً :

- ما رأيك فى الإنضمام إلينا سيد خوليو فى تلك الأمسية التى قد تُثير إهتمامك بما أنك عربى .

إبتسم خوليو قائلاً :

- يسعدنى ذلك بالطبع .

وما إن أنتهى الجميع من إحتساء قهوته ، وقد أخذهم الحديث عن موضوع المخطوطات التى يمتلكها الدوق ، حتى قام الدوق ليفتح خزانة صغيرة فى جانب مكتبته ، ويُخرج منها مخطوطة تشبه الكتاب الصغير ليُعطيها إلى سليم قائلاً :

- تبدو وكأنها مذكرات لأحد الغرناطيين ، لقد إطلعت عليها ولكنى لم أقرأ تفاصيلها فأنا أُجيد العربية بحكم كونى أستاذ تاريخ أتعامل مع المخطوطات العربية كثيرًا فى مجال أبحاثى فى الحضارة الأندلسية ، لذلك تستطيع الإطلاع عليها ، ومشاركتها معنا ، وبما أننا أصبحنا محبوسين هنا الليلة فلا بأس من قضاء الوقت فى سماع تلك المذكرات

التى يبدو أنها لأحد الشخصيات الهامة فى الفترة التى سبقت سقوط غرناطة ، اسمه الشيخ عبد الله الغرناطى ...

شعر خوليو بالفضول من حديث الدوق لسماع ما جاء فى تلك المذكرات ، وقد تذكر جده حينما كان يقص عليه تلك الحكايا والقصص التاريخية، ولكنه سرعان ما نفض تلك الذكرى ليُصغى إلى ما يقرؤه سليم ، أما سليم فقد أومأ برأسه علامة الموافقة وأمسك تلك المخطوطة بيديه فى حرص شديد ، وضربات قلبه تتسارع ... وقد بدأ فى قراءة ما ورد فى تلك المذكرات ....

****

الفصل الثالث

****

مهما طال الليل وساد ظلامه ، فلابد له من فجر يدحره ويرده فيُسلّم أمامه ، تلك سُنة الله فى أرضه ، فالباطل لا يدوم مهما كانت قوته وعدده وعتاده وتجبره، والحق هو كلمة الله فى أرضه ، لا راد لها ولا مُعقب ، وما نحن إلا حَمَلة لأمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها ، لن تزيدنا الحياة شيئًا إلا بقدر أدائنا لتلك الأمانة العظيمة ، ولن يُنقصنا الموت شيئًا إلا بمقدار تلك الدنيا التى لا تساوى جناح بعوضة عند ربها ، وما حياتنا إلا رسالة نؤديها ليُكملها غيرنا .

غرناطة . يناير عام 1490 م

****

نهضت الملكة إيزابيلا بعد أن فرغت من الصلاة لتلتفت إلى الأسقف هيرناندو دي تالافيرا أسقف أفيلا قائلة:

- فلتدعو الرب يا أبتاه أن تنجح مهمتنا المقدسة من أجل تطهير أرضنا وإرتفاع راية الصليب فوقها .
- فلتصحبِك بركات الرب يا مليكتى ، فأنتِ تبذلين قصارى جهدك من أجل توحيد كل تلك الأراضى تحت راية الصليب فى ظل حكم مملكة قشتالة العظيمة .

تنهدت إيزابيلا وهى تجلس وتشير للأسقف بالجلوس قائلة :

- لقد خضنا حروب ومعارك كثيرة من أجل السيطرة على كل تلك الأراضى التى سيطر عليها هؤلاء المسلمين لقرون طويلة ، وقد نجحنا بالفعل فى هزيمتهم ودحرهم ، وها هم قد تساقطوا وتساقطت م مالكهم، بعد غرق ملوكهم فى ملذاتهم بعد أن سارعوا الواحد تلو الآخر فى طلب العون منا إما أمنًا لنفسه أو نُصرة منا على من هم من بنى جلدته ، لم يتبق لنا سوى غرناطة لينتهى الوجود الاسلامى من أرضنا وإلى الأبد.
- حتى لو إنتهى الحكم الاسلامى لتلك الأراضى يا مولاتى ، فليس معنى ذلك زوال الإسلام نفسه منها ، ربما يكون الإستيلاء على تلك الممالك وحكمها هو الخطوة الأولى فقط من أجل تحقيق حلمنا .
- أصبت يا أبتى ولذلك يجب علينا الإسراع فى الإستيلاء على غرناطة آخر معاقل المسلمين فى أرضنا .

هَمَ الأسقف بالحديث عندما قاطعه صوت ميزه من نبرته الهادئة الواثقة وهو يقول فى هدوء :

- الأمر ليس بتلك السهولة يا مولاتى .

إلتفت الإثنان إلى المتحدث الذى لم يكن سوى الكاردينال بيدرو غونزاليس دى ميندوزا الذى أردف وهو ينحنى أمام الملكة :

- تحياتى لمولاتى ملكة قشتالة وليون .

أشارت إليه الملكة بالجلوس وهى تردف:

- أدرك ذلك يا بيدرو ، ولكننا لن نهدأ حتى تسقط تلك البقعة لترتفع راية قشتالة عليها.
- بالطبع يا مولاتى ... فسقوط غرناطة بات مسألة وقت بعد أن دانت لنا سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية،وسقطت ما حولها من ممالك ، وآخرهم بسطة وألمرية اللتان سلمهما لنا القائد يحى النيار بعد أن أمنّاه على حياته هو وعائلته ، وكذلك مدينة وادى آش التى سلمها لنا أبى عبد الله الزغل بعد حصارها من قِبَل قواتنا ، مما جعله يبا يعنا بالخضوع والطاعة هو وسائر قواته مقابل بعض المنح والإمتيازات ، ولكن الأمر بالطبع يختلف بالنسبة لغرناطة فهو يحتاج إلى تخطيط قبل الإقدام على أى خطوة .

تنحنح الأسقف هيرناندو وهو يتطلع إلى الكاردينال قائلاً :

- إسمح لى سيدى الكاردينال ، فأنا لا أرى فرقًا بين غرناطة وباقى المدن التى سقطت قبلها ، فنحن نستطيع الإستيلاء عليها بسهولة بعد أن أصبحت مُحاصرة منذأن إستولينا على المدن من حولها وقطعنا عنها الإمدادات والعون الذى كان يأتيها عبر مضيق جبل طارق .

أشار دى ميندوزا فى هدوء قائلاً:

- إن غرناطة هى آخر معاقل الإسلام فى إسبانيا ، فهى رمز للمملكة الإسلامية الزائلة ، ومعظم المسلمين الذين فروا أو هجروا من المدن التى إستولينا عليها قد لجأوا إليها ، لذلك سوف يستميت المسلمين فى الدفاع عنها بشدة ، وفى رأيى أننا ربما نحتاج لبعض من الوقت والجه د فى الإستيلاء عليها ، ولكنها ستسقط حتماً فى أيدينا فقد أصبحت وحيدة محاصرة من كل جانب ، هذا بالإضافة لضعف أميرها الصغير الذى لا نتوقع منه الكثير من المقاومة وخصوصًا بعد ما حدث من الزغل.

تطلعت إليه إيزابيلا وهى تفكر بالأمر :

- وماذا تقترح أنت فى هذا الشأن يا بيدرو..؟
- هذا هو ما جئتك من أجله جلالتك ، فأنا أقترح إرسال رسالة صغيرة إلى الأمير الصغير.

تطلعت إليه إيزابيلا فى تساؤل قائلة:

- رسالة صغيرة ..؟!!، وما هى تلك الرسالة ..؟

إرتسمت إبتسامة خبيثة على وجه دى ميندوزا وهو يتراجع فى مقعده ليشرح للملكة فكرته ، والملكة والأسقف ينصتان له فى إهتمام ....

****

كان الجو هادئًا فى ذلك الوقت عقب صلاة الفجر أمام مسجد غرناطة الكبير في مدينة غرناطة في أعلى حي البيازين ،حيث تلك الإطلالة الرائعة على قصر الحمراء وحدائقه التي تحمل رائحة الأندلس بأفراحها وأحزانها ، شموخها وإنكسارتها ، مما جعل الشيخ عبد الله الغرناطى يتنهد بقوة وهو يربت على كتف الشاب الذى خرج لتوه من المسجد معه ، وهو يتطلع إلى قصر الحمراء الذى يفصله عن الحى نهر حدرة، وقد بدا من بعيد بأبراجه وحدائقه يلفه تلك الأطياف الخافتة لضوء فجر لتجاهد ظلام الليل الذى بدأ يتراجع على إستحياء ، والشيخ يتمتم قائلاً :

- أرأيت يا ولدى ..؟! ، مهما طال الليل وساد ظلامه ، فلابد له من فجر يدحره ويرده فيُسلّم أمامه ، تلك سُنة الله فى أرضه ، فالباطل لا يدوم مهما كانت قوته وعدده وعتاده وتجبره، والحق هو كلمة الله فى أرضه ، لا راد لها ولا مُعقب ، وما نحن إلا حَمَلة لأمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها ، لن تزيدنا الحياة شيئًا إلا بقدر أدائنا لتلك الأمانة العظيمة ، ولن يُنقصنا الموت شيئًا إلا بمقدار تلك الدنيا التى لا تساوى جناح بعوضة عند ربها ، وما حياتنا إلا رسالة نؤديها ليُكملها غيرنا .

تطلع إليه عمر فى إعجاب :

- ما أجمل حديثك يا جدى ، فى كل مرة أتحدث معك فيها أشعر بالإيمان واليقين يملآن قلبى ، فلن يحدث فى أرض الله إلا ما أراد الله ، فهو الغالب على أمره ، وما علينا سوى

أداء رسالتنا ، سواء عشنا لنرى ثمارها ونجنيها ، أو جناها غيرنا من بعدنا ، ولكن الأمر الأصعب على النفس ، هو غرناطة ، فهى لا تستحق ما يُفعل بها يا جدى ، إنقسامات وفرقة ومؤامرات وخنوع وخيانة أودت بالأندلس كلها ، فلم يتبق منها سوى تلك الرقعة التى تستعد لتواجه ذات المصير، والأمة الإسلامية كلها صامتة صمت القبور وكأن ما يحدث لنا هنا لا يعنيها .

سار الشيخ بصحبة حفيده فى طريقهما إلى البيت فى حى البيازين والجد يقول فى هدوء:

- لن يداوى جراح غرناطة سوى الغرناطيين أنفسهم ، فكل جزء فى تلك الأمة غارق فى مشاكل وخلافات ونزاعات لا تنتهى ، وكل ذلك ينخر فى جسد تلك الأمة ، فقد إبتعدوا عن منهجهم وها هم يرزحون فى دروب التيه ، هى أمة لا تموت يا ولدى ، ولكنها أحيانًا تضعف بتخليها عن مقومات قوتها ، فتتداعى عليها الأمم كما حذرها رسول الله (ﷺ) ، ثم تعود وتصحو مرة أخرى وهو ما يخشاه أعدائها ، فلا تنتظر المساعدة من أحد .

أومأ عمر برأسه وهو يُردف قائلاً:

- أنت محق يا جدى ..، فقد سيطر القشتاليين على مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة من المغرب وإفريقية ، أما الدولة العثمانية فهى غارقة فى مشاكلها الداخلية والخارجية لذلك لم تُفلح فى مساعدتنا ، وكذلك الحال بالنسبة لدولة المماليك فى مصر التى تعانى المشاكل هى الأخرى، إلا أن السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي قد حاول نصرة مسلمي الأندلس ولم يجد وسيلة لذلك سوى إرسال وفود إلى البابا وإلى الإسبان ليخبرهم بأن رعاياه النصارى فى مصر وبيت المقدس وهم ملايين يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية، ولا يتعرض لهم أحد، مطالبًا إياهم بعدم التعرض للمسلمين وكف أيديهم عنهم والرحيل عن أراضيهم ، وليحذرهم من أنه سيتعامل بالمثل مع رعاياه النصارى إن لم يمتثلوا لطلبه ، ولكن القشتاليين والبابا لم يمثلوا لهذا التحذير الذي عَدّوه مجرد تخويف ، لأنهم يعلمون أن الدين الإسلامي يمنع إيذاء النصارى أو التعرض لهم .... لقد أصبحنا وحدنا تمامًا ليس لنا حليف أو نصير.

إبتسم الشيخ قائلاً :

- لسنا وحدنا ، طالما الله معنا وإيماننا فى قلوبنا وعزمنا تلين له الجبال ، نحن لن نستسلم بتلك السهولة ، فليس هذا ما علمته إياك أنت ورفاقك الثمانية ، لقد إخترتكم ودربتكم منذ نعومة أظافركم ، والآن وقد أصبحتم فرسان شديدة البأس لا ينقصكم الحكمة والدهاء ، تستطيع ون قيادة تلك الجموع التى على إستعداد للتضحية بكل شئ من أجل بقاء تلك المدينة قائمة يذكر فيها اسم الله ويعلى فيها شأن الإسلام .
- نحن دائمًا على إستعداد للتضحية بأرواحنا .
- أدرك ذلك يا ولدى ، فأنا أثق بكم ، وأثق أيضًا فى قائدكم ، موسى بن أبى الغسان ، فذلك الرجل هو فارس غرناطة بلا مُنازع ، لا يرضى الإستسلام أو الخنوع ، ولا يقبل الدنية ، وله كلمته وتأثيره فى قصر الحمراء ، فالكل يحترمه ويهابه .

كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تتسلل فى رفق لتغمر الحى بأزقته الضيقة المُعبدة بالحجارة المرصوصة وتعانق منازله ذات اللون الأبيض التى تحيط بها الأشجار لتصنع لوحة فنية بديعة الصنع ، حين وصل الشيخ عبد الله وحفيده عمر لمنزلهم بالحى ، ليسمعا فاطمة حفيدة الشيخ وإبنة عمه لعمر التى إستقبلتهم على باب المنزل هاتفة فى غضب مصطنع:

- لست أدرى لما تصرون على أداء صلاة الفجر بمسجد غرناطة الكبير ، بالرغم من أن الحى به ثلاثة مساجد تستطيعون الصلاة بها .

ضحك الإثنان فى حين هتف عمر ممازحًا :

- إنه الأجر يا فقيهة ، فكل خطوة يُرفع بها درجة ويُحط بها خطيئة ، كما أن ذلك الوقت هو أفضل وقت أقضيه مع جدى بعيدًا عن ثرثرتك ودون أن تدسى أنفك الطويل فى حديثنا .

عقدت فاطمة حاجبيها وهى تهتف غاضبة :

- حسنًا ... بما انى ثرثارة وفضولية ، فلن أُقدم لك ما صنعته من إفطار شهى ، سأُطعم منه جدى فقط .

تطلع عمر إلى عينى فاطمة قائلاً فى رجاء مصطنع :

- أغثنى يا جدى .. فحفيدتك الحسناء تريد حرمانى إفطار من صنع يديها ، وأنا لا أتحمل مثل ذلك العقاب .

إحمر وجه فاطمة من الخجل فى حين ضحك الجد وهو يهتف:

- ألا يمر يومًا دون أن تتشاجران كالأطفال ، منذ أن كنتما صغيرين وأنت تثير غضبها دائمًا يا عمر .
- ولكنى أنجح دائماً فى مصالحتها يا جد .

إرتبكت فاطمة أكثر وهى تهتف فى خجل :

- هيا يا جدى قبل أن تبرد الفطائر التى صنعتها لك ، سأذهب الآن حتى أُجهز الإفطار لأمى قبل أن تستيقظ .
- ألم تتحسن صحتها قليلاً يا بُنيتى .

ظهر الألم على وجهها وهى تردف فى حزن:

- لم تزل تُعانى ، ولم ينجح الطبيب حتى الآن فى أن يخفف عنها .
- شفاها الله يا بُنيتى سوف أذهب لأطمئن عليها فى القريب .

ذهبت فاطمة مُسرعة وعمر يتابعها بقلبه قبل بصره ، قبل أن يُنادى عليه الشيخ ليدلفا سويًا للمنزل ، وجده يسأله :

- هل إتفقت مع الجميع على الحضور اليوم .
- نعم يا جدى .. سيحضر الجميع الإجتماع اليوم بعد صلاة العشاء .
- حسنًا يا ولدى .. لله الأمر من قبل ومن بعد.

****

إجنمع عمر وصحبه بعد صلاة العشاء فى دار الشيخ عبد الله الغرناطى ، كانوا تسعة فتية هم عمر وزياد ويوسف وعبد الرحمن وعلى والوليد والحسن وهشام وحكيم ، إختارهم الشيخ منذ سنوات طفولتهم الأولى لتدريبهم وتلقينهم فنون الفروسية وخدع الحرب ، بعد إستشهاد ولديه فى إحدى المعارك مع القشتاليين ، فقد فقد ولديه بعد أن ترك له أحدهما عمر الذى توفت

والدته بعد ولادته ، والآخر ترك ورائه فاطمة التى كان يحلم بتزويجها من عمر لولا مرض أمها الشديد ورعايتها لها .

كان الشيخ قد صنع من هؤلاء الفتية فرسان لا يشق لهم غبار ، ساعدهم فى ذلك إنضمامهم للقائد موسى بن أبى الغسان ، الذى كان يعتمد عليهم إعتمادًا كبيرًا فى تلك المرحلة الصعبة التى تمر بها غرناطة .

إلتف الجميع حول الشيخ وزياد يتساءل :

_ أشعر أنك طلبت الإجتماع بنا اليوم فى أمر هام يا جدى .

أومأ الشيخ عبد الله برأسه موافقًا :

_ نعم يا ولدى ، ولكننا ننتظر الآن شخصًا هامًا هو من سيخبركم عن سبب إجتماعنا .

وقبل أن يتساءل أحدهم عن شخصية ذلك الزائر الغامض ، سمع الجميع طرقات خفيفة على الباب الذى بادر إليه يوسف ففتحه ليجد أمامه فارسًا ملثمًا ممشوق القوام بثياب سوداء وقد غطى وجهه لثام أسود ، وكأنما قد إنشق قلب الليل ليخرج منه ذلك الفارس الغامض الذى دلف إلى الدار مُسرعًا ويوسف يوصد الباب من خلفه .

إستقر المقام بالجميع بعد أن إتخذ كل منهم مجلسه ، وكلهم يتساءلون عن شخصية الفارس الملثم الذى أماط اللثام عن وجهه ليشهق الجميع فى دهشة ، فلم يكن ذلك الفارس سوى قائدهم موسى بن أبى الغسان الذى بادر بالحديث إليهم قائلاً :

_ لقد طلبت من الشيخ عبد الله الإجتماع بكم اليوم لأمر خطير ، فأنتم أكثر من أثق بهم فى غرناطة كلها ، وهذه المهمة تتطلب السرية الشديدة من أجل مستقبل غرناطة ومصيرها .. فهل أنتم على إستعداد للتعاون معى مهما كان ما سأطلبه منكم ..؟

رد الجميع بالموافقة وحكيم يردف قائلاً:

_ بايعناك جميعًا على السمع والطاعة أيها القائد، ما دام ذلك فى سبيل الدفاع عن غرناطة وحفظ الاسلام والمسلمين فيها.

أومأ موسى برأسه وهو يلتقط نفسًا عميقًا ويردف قائلاً :

- جميعكم تعلمون أنه بعد سقوط بسطة وألمرية ووادى آش لم يعد أمام القشتاليين عائق أمام تحقيق حلمهم فى القضاء على الإسلام والإستيلاء على آخر معاقله بالأندلس سوى غرناطة ، وأنتم تعلمون أنه ما سقطت ممالك الأندلس عن ضعف بقدر ما سقطت عن فُرقة إختلاف وتناحر بين ملوك هامن جهة ، وخيانة بعضهم وموالتهم وإستعانتهم بالملوك النصارى من جهة أخرى .

وافقه الشيخ عبد الله وهو يشير بيده قائلاً:

- لم تكن نصرة أعداء الإسلام دائمًا بعدد ولا عُدة ، وإنما كانت عن فُرقة وتشتت وإبتعاد المسلمين عن دينهم ، فما إنتصر أعدائنا إلا بهزيمتنا النفسية وكسر إرادتنا وإشاعة الُفرقة والإختلاف فى صفوفنا ، فأصبحنا أعداء لأنفسنا ، نفعل بها ما لا يفعلونه هم بنا .

عقد موسى حاجبيه وهو يهتف فى غضب :

- وهذا بالضبط ما فعلوه ويفعلوه الآن بنا ، فبعد تلك المعاهدة السرية المُهينة التى عقدها معهم الأمير عبد الله الصغير مقابل إطلاق سراحه من الأسر ، والتى وافق فيها على تبعية غرناطة للتاج القشتالى ، لم يعد لدىّ ثقة فى ذلك الأمير ولا فى قدرته على الحفاظ على غرناطة ، فهو ضعيف العزم والإرادة ، قليل الحزم والخبرة ، وخصوصًا أن من حوله من وزراء وحاشية معظمهم من الخانعين الذين يُؤثرون سلامتهم ومصالحهم الشخصية على مصالح غرناطة ، وهو ما أعطى فرناندو وإيزابيلا ملوك قشتالة وأراجون الجرأة على إرسال رسلهم بهذه الرسالة المُهينة منذ أيام .

قالها موسى وصمت ليلتقط أنفاسه ، محاولاً السيطرة على غضبه ، والجميع يتبادل نظرات متساءلة ، مما دفع حكيم إلى أن يهتف فى تساؤل:

- أية رسالة تلك التى تقصدها أيها القائد..؟

أردف موسى وهو يدير بصره فيمن حوله فى لهجة إمتلأت بمزيج من الغضب والحزن :

_ لقد أرسل الملكان الكاثوليكيان سفارة على يد فارس يهما ، كونثالو فرناندیث قائد حصن إليورة ، ومارتين ألاركون قائد حصن موكلين ، ليخاطباه فى موضوع التسليم .

إستشاط الجميع غضبًا ، وعبد الرحمن يهتف غاضبًا:

_ كيف يجرؤون على طلب مثل ذلك ، أماتت الرجال فى غرناطة ...؟!!

تطلع إليه موسى وهو يردف فى بطء:

_ لم يطلبوا تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنهم طلبوا من الأمير أبو عبد الله تسليم قصور الحمراء مقر المُلك والحكم ، على أن يبقى مُقيمًا فى غرناطة فى طاعته وتحت حمايته، أسوة بما فعلته سائر نواحى الأندلس ، أو أن يُقْطِعَهُ أى مدينة أخرى من مدن الأندلس، يختار الإقامة فيها ، وأن يمده بمال جزيل .

هز الشيخ عبد الله رأسه فى حزن وهو يشير بيده قائلاً:

_ إنا لله وإنا إليه راجعون ، هل وصل بنا الحال لهذه الدرجة من المذلة والهوان .

هتف موسى فى غضب :

_ لا والله لن يحدث ، طالما فى غرناطة رجال موحدين يفضلون الموت على تلك المهانة .

أشار يوسف فى هدوء قائلاً:

_ ولكن ماذا كان رد الأمير أبو عبد الله ..؟ ، هل وافق على هذا الهزل ...؟

هز موسى رأسه نافيًا وهو يقول :

_ ظننته سيفعل ، ولكنه أرسل رسالة للملكين الكاثوليكيين يخبرهم فيها بإيفاده لل وزير أبا القاسم المليح ليتحدث إليهما فى الموضوع .

أردف يوسف قائلاً:

_ إذًا لقد رفض طلبهما بتسليم الحمراء .

أومأ موسى برأسه قائلاً:

- نعم ، لقد رفض التسليم ولكن الملكين الكاثوليكيين أصرا على طلبهما ، مما دفعه إلى العزم على حربهما ولكن من حوله نصحوه بالتريث والروية ، فأرسل وفدًا آخر على رأسه وزيره يوسف بن كُماشة ، والتاجر إبراهيم القيسى أحد ثراة غرناطة والذى تجمعه علاقات طيبة مع النصارى لإ قناعهما بالعدول عن رأيهما ، ولكنى أتوقع أن يردوهما وأن يصرا على طلبهما ، فهم يريدون تركيع غرناطة وإذلالها لكسر نفوس جندها وأهلها ، وبالتالى الإستيلاء عليها بأقل الخسائر .

صمت موسى لبرهة مرت على الحضور كالدهر فأردف الشيخ عبد الله قائلاً:

- لذلك نتوقع أن تستأنف الحرب مرة أخرى بيننا ، وفى هذه المرة ستكون أشد ضراوة ، فهى بالنسبة لنا ستكون معركة وجود ، معركة من أجل البقاء ، وبالنسبة للقشتاليين فهى معركة من أجل فرض سيطرتهم على الأندلس بالكامل ، وإنهاء الوجود الإسلامى منها إلى الأبد ، فهى بالنسب ة إليهم معركة مقدسة خاصة فى ظل وجود مليكتهم المتعصبة إيزابيلا .

أومأ موسى برأسه موافقًا وهو يردف :

- ولهذا السبب يجب علينا أن نستبق الأحداث وأن نبدأ فى التحرك منذ الآن ، فالوقت ليس فى صالحنا ، لقد فكرت كثيرًا وشاورت الشيخ عبد الله فى هذا الأمر ، ولم أجد من أثق فيه أكثر منكم لتنفيذ ما توصلنا إليه ، لذلك وقع عليكم إختيارى للقيام بتلك المهمة.

تمتم عمر فى تساؤل حذر:

- وما هى تلك المهمة سيدى القائد ..؟

إعتدل موسى فى مجلسه قائلاً فى إهتمام :

- فى البداية يجب أن يكون لنا أعين داخل القصر الملكى لإيزابيلا وفرناندو ، يجب أن نخترق صفوفهم حتى لا تُفاجئنا تحركاتهم ، لذلك سوف نختار إثنين منكم لتلك المهمة ، أما الباقيين فسيكون لكل منكم فرقة قتالية خاصة مُدربة على إختراق صفوف العدو والتعامل مع مدافعهم ، سيكون هدفكم هو إرهاق العدو وإستنزافه .

أردف عمر قائلاً:

_ ولكن إختراق صفوفهم ليس بالأمر السهل .

أشار إليه الشيخ عبد الله قائلاً فى ثبات :

_ ومنذ متى دربتكم على شئ سهل يا فتى ، لم أعلمكم لتصبحوا مجرد جنود تحملون السلاح ، وإنما زرعت فيكم ما يجعل منكم الرجل بأمة ....

أومأ الجميع برأسهم علامة الموافقة ، مما جعل موسى يردف قائلاً:

_ إذًا .. فلنبدأ عل بركة الله ...

قالها وبدأ فى شرح خطته لهم ، والفتية يتطلعون إليه فى إنبهار ، وهم يشعرون بالفخر أن لهم قائد مثله ...

موسى بن أبى الغسان ....

****

توقف الركب الذى يرافق الكار دينال بيدرو غونزاليس دي ميندوزا فى رحلة الصيد قبل غروب الشمس ليضربوا معسكراً فى الغابة قبل حلول الليل ، وأحد الحراس يخاطب الكاردينال فى إحترام قائلاً :

_ فليسمح لنا سيدى الكاردينال فى إقامة معسكرنا الليلة هنا ، فهو أنسب مكان للمبيت.

أومأ الكاردينال برأسه موافقًا وترجل عن حصانه ، فترجل الركب المرافق له وبدأ الحراس فى نصب الخيام وإشعال النيران ، ولكن فجأة شعر الجميع وكأنهم محاصرون ، وإذا بمجموعة من قاطعى الطريق يحيطون بهم من كل جانب ، فاستل الجميع سيوفهم وأحدهم يهتف :

_ فلتحموا سيدى الكاردينال ، لا تدعوا أحد يقترب منه .

وعلى ضوء النيران المشتعلة دارت معركة حامية بين قطاع الطريق وحراس الكاردينال ، كانوا تسعة من أفضل الفرسان القشتاليين فى مقابل خمسة من قطاع الطرق ، وبالرغم من براعة

فرسان الحراسة إلا أنهم لم يصمدوا أمام هؤلاء اللصوص الذين أظهروا براعة فائقة فى القتال ، إستمر القتال حتى سقط جميع حراس الكاردينال ولم يتبق سواه ، لم يكن الكاردينال مجرد رجل دين وإنما كان فارسًا ورجل دولة أيضًا ، لذا فقد إستبسل فى المقاومة حتى سقط سلاحه ووقع أرضًا ، فإقترب منه قطاع الطرق الْمُقَنَّعِينَ وأحدهم يهتف ساخرًا بلغة قشتالية وهو يتطلع إليه :

_ يبدو أننا وقعنا على صيد ثمين ، فمن زيه وحراسته وأبهة موكبه يبدو وكأنه أحد النبلاء .

هتف دى ميندوزا فى غضب :

_ سوف تدفعون ثمن فعلتكم هذه غاليًا ، فأنتم لا تعرفون من أنا .

قهقه أحدهم قائلاً فى سخرية وهو يصوب سيفه نحو رقبة دى ميندوزا :

_ نحن لا ندفع أبدًا ، نحن نقبض فقط يا رجل ، وسوف .....

قاطعته ضربة قوية ألقت بسيفه بعيدًا تلتها ضربة على صدره الذى إنفجر بالدماء ، وفجأة دار أمام الكاردينال قتال عنيف بين إثنين من الفرسان ظهروا فجأة وكأنهم برزوا من قلب الليل ، إثنين فقط من الفرسان ظهروا وكأنهم عاصفة هوجاء أطاحت بكل ما أمامها ، فتساقط اللصوص الخمسة أمامهم وكأنهم أوراق خريفية فى مهب ريح عاصفة ، كل هذا والكاردينال مُلقى على الأرض وكأنه لم يستوعب بعد ما حدث ، إلى أن مد إليه أحد الفارسين يده فهب واقفًا وهو لا يزال فى ذهول مما رآه ، وأحد الفارسين يتمتم فى هدوء :

_ إنصرف لأهلك يا رجل ، فالمكان هنا ليس آمنًا .

تطلع إليهما دى ميندوزا وهو يهتف فى ذهول :

_ ألا تعرفون من أنا..؟ ، خاطرتم بحياتكم لكى تنقذونى دون أن تعرفوا من أنا ..؟

ضحك الفارس الآخر قائلاً بسخرية :

_ ومن ستكون سوى نبيل مدلل يقضى وقته فى الصيد واللهو ، ليكون صيدًا ثمينًا لهؤلاء اللصوص ..؟

هتفدى ميندوزا فى وقار:

_ أنا الكاردينال بيدرو غونزاليس دي ميندوزا رئيس أساقفة توليدو والرجل الأول فى القصر الملكى القشتالى ، مساعد الملكة وأمين سرها .

تطلع الشابان لبعضهما فى دهشة ثم إنفجرا ضاحكين وأحدهما يهتف بسخرية :

_ كيف لأمين سر ملكة قشتالة وليون ومساعدها أن يتجول فى الغابات بمثل تلك الحراسة الضعيفة ، فلتشكر الرب إذن أن من هاجموك مجرد لصوص وليسوا فرسان مسلمين .

هتف دى ميندوزا قائلاً :

_ أنا الكاردينال دى ميندوزا بالفعل ، وسوف أثبت لكم صحة حديثى ، ولكن من أنتم..؟، ومن أين أتيتم ..؟

_ نحن من قرية صغيرة على حدود ليون والبرتغال ، نرتحل أينما شئنا ووقتما شئنا .

_ ولكنكم تقاتلون ببراعة ....

_ تعلمنا الكر والفر منذ نعومة أظافرنا ، ونؤدى خدماتنا لمن يدفع لنا .

_ ولماذا لا تلتحقون بالجيش القشتالى .

_ لا نريد التقيد بحياة الجيش وأوامره ونواهيه ، فلم نعتد أن يرؤسنا قائد أو أن نتلقى الأوامر من أحد .

أشار إليهم بيدرو قائلاً :

_ وما رأيكم أن تعملوا معى كحراس شخصيين لى .

_ قلنا لك يا سيدى ...، نحن لا نحب الحياة الرتيبة المليئة بالأوامر والنواهى ، وحياة القصور لا تناسبنا .

_ أنا مدين لكما بحياتى ، لذلك دعونى أولاً أكافئكما على فعلتكما معى ، وبعدها لن يكون إلا ما تريدان .

تطلع الشابين لبعضهما البعض وقد وافقا على عرض بيدرو فامتطى كل منهم فرسه وإنطلقوا فى طريقهم لقصر الكاردينال فى قشتالة .

وما إن إختفوا عن الأنظار حتى خرج ذلك الفارس الملثم ومعه إثنين من الفرسان من مخبئهم خلف الأشجار الكثيفة ليهتف:

_ هيا يا رجال فقط نجحتم فى تنفيذ هذا الجزء من الخطة .

قالها فبدأ قطاع الطريق الملقون أرضًا بالنهوض وملابسهم مغطاة باللون الأحمر الذى يشبه الدماء وأحدهم يهتف :

_ لقد كانت خطة عبقرية أيها القائد ، وخصوصًا فكرة تلك الأكياس المليئة بتلك المادة الحمراء التى تشبه الدماء والتى وضعناها داخل ملابسنا لتنفجر مع ضربات السيوف .

تمتم آخر:

_ لقد كنت قلقًا طوال الوقت من أن تُصاب تلك الأكياس من ضربات الفرسان القشتاليين فتفشل الخطة .
_ ألم تقلق من ضربات الوليد والحسن ، فخطأ واحد منهما كان من الممكن أن يُودى بحياة أحدنا .
_ أنا أثق بهما كما أثق بنفسى فهم يجيدون المبارزة والتصويب كما تجيد أنت الكلام .

ضحك الجميع فيما عدا القائد الذى لم يكن سوى موسى بن أبى الغسان ، فقد كان ما يقلقه شئ آخر ..

تُرى هل ينجح الوليد والحسن فى تثبيت أقدامهما داخل القصر القشتالى ..

أم ينكشف أمرهما ويخسر أثنين من أفضل فرسانه ..

ويخسر معهما فرصته فى معرفة ما يُدبر لغرناطة ..

****

جلس الأمير أبو عبد الله الصغير فى مجلسه الذى يجمع بين وزيريه أبا القاسم المليح ، ويوسف بن كماشة ، والقائد موسى بن أبى الغسان والأمير يدير بصره بينهم فى توتر قائلاً:

_ تعرفون جميعكم بشأن رسالة الملكين فرناندو وإيزابيلا .

تمتم ابن كماشة :

_ لقد حاولنا معهم كثيرًا يا مولاى ولكنهم مُصرون بشدة على طلبهم بتسليم الحمراء .

إعتدل الوزير أبا القاسم المليح وهو يردف فى تساؤل :

_ لم أعرف سببًا لإصرارهم على ذلك الطلب حتى الآن .

هتف موسى فى غضب :

_ إنها الرغبة فى إذلال غرناطة وإخضاعها قبل الإستيلاء عليها .

تطلع إليه الأمير أبو عبد الله قائلاً :

_ ولكننا لن نسمح بذلك يا موسى ستقاتل غرناطة حتى آخر رجل فيها .

نظر إليه موسى فى مزيج من الحزن والغضب وهو يتمتم :

_ أتمنى ذلك أيها الأمير ، ولكنهم ما كانوا ليجرؤا على مثل ذلك الطلب لولا معاهدتك معهم والتى جددتها مرة أخرى .

هتف الأمير أبو عبد الله بغضب :

_ وماذا كنت تريدنا أن نفعل ، لقد كنت أسير لديهم ولم يكن لدىّ أى خيار ، وحينما جددنا تلك المعاهدة لم يكن لدىَ الخيار أيضًا بعد خضوع الزغل وسقوط بسطة وألمرية ووادى آش .

شعر أبا القاسم أن النقاش سيحتد بين الأمير والقائد موسى فأسرع فى تهدئة الأمور :

- إن الأمر الآن لم يعد يتعلق بالمعاهدة من عدمه ، فالأمر أصبح جَدٌ خطير ، فبعد أن أصر الملكان الكاثوليكيان على طلبهما ، لم يعد لدينا خيار آخر سوى الحرب .

أشار الوزير ابن كماشة قائلاً :

- قرار الحرب ليس بالأمر السهل أو الهين ، يجب علينا التريث والتفكير قبل إتخاذ مثل ذلك القرار ، فبالرغم من أننا بانسحاب الزغل قد تخلصنا من منافس قوى ، إلا إننا أيضًا فى الوقت ذاته قد خسرنا أقوى عضد يمكن الإستعانة به فى الدفاع عن غرناطة ومقاومة القشتاليين ..

أردف الوزير أباالقاسم قائلاً :

- ولا يجب علينا أن نغفل أيضًا أن سائر قواعد الأندلس والتى تحيط بغرناطة قد غدت جميعها تابعة لمملكة قشتالة ، وعُين لها حكام نصارى ، وغدا ما بقى من أهلها مُدجّنين يدينون بطاعة ملوك النصارى ، ومنهم من إرتد حرصًا على أرضه ومصالحه ، ومنهم من أشفق على نفسه ودينه فجاز البحر إلى بلاد المغرب ، ولكن جموع غفيرة منهم هرعت إلى غرناطة بعد أن غدت معقل الاسلام الوحيد فى بلاد الأندلس ، فقد غدت غرناطة كالمركب الوحيد فى بحر يموج ويعلو بأمواج عاتية .

تطلع إليه موسى وهو يهتف فى غضب :

- ما ذكرتموه الآن يدعو للإصرار على المقاومة أكثر يا وزراء بنى الأحمر ، وليس التردد والتريث كما تريد، فبقائنا وحدنا دون نصير ولا مُعين يفرض علينا الإعتماد على أنفسنا دون إنتظار لمدد ولا عون من أحد ، فقد أصبحت معركة من أجل البقاء ، أما تلك الأعداد الغفيرة التى لاذت ب غرناطة فقد أوذوا فى أنفسهم وأموالهم وأوطانهم ، وهجروا ديارهم كرهًا وغصبًا ، يحملون بين جنباتهم أنفس تموج بالغضب والقهر والمرارة ، وهو ما إنتقل إلى أهل غرناطة ، فأصبحت غرناطة الآن تغلى ، تنتظر من قائدها الإشارة للذود عنها والموت على أعتابها ، دفاعًا عن آخر حاضرة للإسلام فى الأندلس ونُصرةً لدين الله.

كان الأمير أبو عبد الله الصغير صامتًا يستمع إليهم وقد أشعل حديث موسى فى نفسه الحمية والغيرة ، وشعر وربما لأول مرة بفداحة خطئه فى محالفة أعدائه ، مما جعله يهب من مكانه هاتفًا:

- ونحن والله لن نخذل غرناطة أبدًا ، ولن نكون عونًا للقشتاليين عليها .

قالها وإلتفت إلى وزيره أبا القاسم ، ليردف قائلاً:

- أبلغ ملك قشتالة برفضنا لطلبه ، وأبلغه أيضًا أننا لم يعد لنا القول والفصل فى هذا الأمر ، وأن أهل غرناطة يأبون التسليم أو المهادنة ، وهم مُصرون على المقاومة والدفاع عن غرناطة ...حتى آخر رجل .....

هتف موسى فى صوت تردد فى أرجاء الحمراء :

- ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غاليًا ، أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة ، فى المكان الذى أموت مُدافعًا عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين .

وهكذا دوت صيحة الحرب بغرناطة ....

****

الفصل الرابع

****

أعمارنا وأقدارنا ليست ملك لنا ، فقد يقضى الإنسان نحبه على سريره وسط أهله دون سبب سوى حضور الأجل ودنو الساعة ، وقد يعيش فارسًا عمرًا مديدًا وسط ضربات السيوف وطعن الرماح ، فالإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئًا ، ولكن الله خلقنا وحمّلنا رسالة ، ما علينا سوى أدائها دون أن نعرف متى أو أين ستحين ساعة الرحيل وتنتهى الرحلة ، وحتى تحين تلك الساعة علينا أن نحيا كما أمرنا ونُحسن الظن به .

قشتالة. أواخر عام 1490

****

كان الحسن والوليد ، الذين أصبحا أندريا وألفونسو ، يتجولان فى حديقة قصر الكاردينال دى ميندوزا ، مرتدين زى الفرسان القشاليين ، بعد أن نجحا فى أداء دوريهما الذى رسمه لهما القائد موسى بن أبى الغسان فى الإندماج وسط رجال القصر الملكى القشتالى بعد إنقاذهم للكاردينال ، الذى إستعان بهما وكافأهما عن فعلتهما معه ، وعينهما قائدان للحرس الخاص به ، فقد كانت خطة ذكية من القائد موسى لزرعهما فى قصر رجل من أهم رجال القصر الملكى ومستشار الملكة إيزابيلا المقرب ، مما يسمح لهما بالإقتراب من الديوان الملكى ، بل ومعرفة كل ما يدور به وبإجتماعاته ، وبالتالى معرفة ما يخطط له القشتاليين بالنسبة لغرناطة .

تمتم الحسن وهو يتطلع إلى الزهور والنباتات والأشجار التى تراصت فى شكل بديع فى حديقة القصر الذى كانت تشبه حدائق الأندلس الشاهدة على عظمة الحضارة التى صنعها المسلمين هناك :

- لقد مرت علينا عدة أشهر حتى الآن منذ أن بدأنا مهمتنا تلك ، عدة أشهر لم ترى فيها أعيننا غرناطة ، ولكنها لم تغب لحظة عن القلب بما فيها ومن فيها .

تنهد الوليد فى حزن :

- اااه يا غرناطة ، لطالما سكنتِ القلب وملكتيه ، أتعرف يا صديقى ، أشعر أن تلك المهمة هى الأصعب على النفس منذ أن بدأنا طريق الجهاد وأرتضيناه ووهبنا له أعمارنا وحياتنا .
- صدقت يا وليد ، ففضلاً عن ألم البعد عن غرناطة ، فنحن هنا فى قلب العدو ، لا نستطيع سوى أن نتظاهر ببغضنا للإسلام والمسلمين، نعيش فى شخصيات غير شخصياتنا وأسماء ليست لنا ، وحياة ليست حياتنا ، حتى صلاتنا وعبادتنا نمارسها خُفية .

_ ولكن مهمتنا أثمرت الكثير ، فطوال تلك الفترة التى قضيناها هنا إستطعنا معرفة الكثير من نوايا القشتاليين لغرناطة وتحركاتهم وخططهم ، وهو ما كنا نوافى به القائد موسى أولاً بأول .

كان الوليد والحسن منهمكان فى الحديث فى حين كانت تتابعهما من بعيد تلك الفتاة الرقيقة ، كانت لها عيون زرقاء واسعة فى جمال السماء وهى صافية ، وشعر ذهبى مسترسل وكأنه سلاسل من ذهب توجت رأسها ، هيفاء ممشوقة القد ريانة الفم ، وكأنها مثال حى للجمال يسير على الأرض لتهفو القلوب وتتطاير العقول ، لم تكن تلك الفتاة سوى فلور يندا إبنة الكاردينال دى ميندوزا ، والتى لم تحرك عينيها منعلى الحسن أو أندريا كما تعرفه .

فمنذ أن أحضره أباها مع صديقه وهى مهتمة به ، فقد كانت تشعر بشئ ما نحوه يجعل قلبها يخفق بشدة كلما رأته أو سمعت باسمه ، كانت تستنكر ذلك من نفسها بشدة ، فهى لم تعرفه سوى منذ بضعة أشهر فقط ، ولا تعرف عنه شيئًا سوى أنه أنقذ أباها هو وصديقه ، حتى أنه لم يحاول يومً ا أن يتحدث معها أو يتطلع إليها ، بالرغم من أنها كانت محط إهتمام جميع النبلاء بسبب جمالها ونسبها ، لذلك كان ذلك الفتى يثير فضولها دائمًا ، بل ويحرك مشاعرها أيضًا ، لم تكن تهتم بالمحيطين بها من نبلاء وأمراء كما تهتم بهذا الفتى الغريب ، حاولت كثيرًا التقرب منه ولكنه كان يبتعد فى أدب وتهذيب دون أن يحاول التقرب منها كما يفعل الآخرون .

إقتربت فلوريندا من أندريا وألفونسو وهى تتحدث فى دلال :

_ سنيور أندريا ، كنت أرغب فى تعلم المبارزة ، وقد فكرت كثيرًا فيمن يقوم بتلك المهمة من أجلى ، فاستقر رأيى عليك أنت وسنيور ألفونسو بالطبع ، فقد أثبتم مهارة وكفاءة كبيرة حين أنقذتم أبى ، وهو ما فشل فيه أفضل فرسان قشالة الذين كانوا مصاحبين له .

لم يرفع أندريا بصره إليها وإنما خفضه وهو يتمتم فى أدب :

_ لا أرى حاجة لك يا سيدتى لتعلم المبارزة ، فالجميلات أمثالك لا يليق بهن حمل السيف ، ولا الضرب أو الطعن .

إرتبكت فلوريندا ، فقد كانت هذه الحجة هى وسيلتها للتقرب من أندريا ، مما جعلها تهتف :

- ولكنى أرغب فى ذلك ، وأبى لا يمانع فى الأمر .
- إسمحى لى سيدتى ، إن كنتِ تُصرين على ذلك فهناك من هم أفضل منا للقيام بتلك المهمة ، فنحن هنا فقط من أجل حراسة سيدى الكاردينال .
- وإن كانت تلك هى رغبة سيدك الكاردينال .
- فى هذه الحالة يجب علىّ أن أُذكرك بوعد سيدى الكاردينال لنا ، والذى ترك لنا الحرية فى الإختيار بين البقاء أو الرحيل وقتما نشاء ، ووعده بعدم إجبارنا على فعل شئ لا نريده .

إستشاطت فلوريندا غضبًا بسبب رفض أندريا لطلبها ، وقد همت بتلقينه درسًا قاسيًا بعد أن شعرت بالإهانة بسبب موقفه الذى شعرت معه بالعجرفة والتكبر ، لولا أن تدخل ألفونسو لتهدئة الأمر بعد أن لمح الفارس خوسيه يقترب منهم ، فهتف قائلاً :

- مرحباً خوسيه ، أية ريح ألقت بك الآن .

كان خوسيه واحد من كبار الفرسان المكلفين بحراسة قصر الكاردينال ، ولكنه كان دائم الشعور بالغيرة والكراهية لأندريا وألفونسو الذين ظهرا بين عشية وضحاها ليأخذوا مكانة كبيرة عند الكاردينال ويرافقوه كظله ، بل ويعاملون معاملة خاصة فى القصر ، وخصوصًا بعد أن شعر بإهتمام فلوريندا إبنة الكاردينال بأندريا ، ورفضها الدائم له بالرغم من محاولته للتقرب منها أكثر من مرة ، لذلك كان يضمر الكراهية والحقد لهما ، وهو ما لم يحاول حتى إخفاؤه وهو يتطلع إليهم متمتمًا :

- سيدى الكاردينال يريد حضوركم الآن أمامه لأمر هام .

هتف أندريا فى جدية :

- حسنًا .. نحن فى طريقنا إليه .

قالها وإلتفت إلى فلوريندا قائلاً فى إحترام :

- عذرًا منك سيدتى ، فنحن مضطرون للذهاب الآن .

غادر أندريا وألفونسو فى حين إلتفت خوسيه لإبنة الكاردينال قائلاً فى هدوء بلهجة ذات مغذى:

_ هل يزعجك أحدهم يا سيدتى ، لو أمرتنى لأحضرت رقابهم تحت قدميك .

تطلعت إليه فلور بيدا بتعالٍ وهى تغادر المكان دون أن تنطق حرفًا واحدًا ، مما جعله يتمتم فى حقد:

_ إذهبى الآن يا فلور بيدا ، فلن يطول الأمر حتى تكونين لى ، بعد أن أتخلص من هؤلاء الأفاقين ، وخصوصًا ذلك المدعو أندريا .

****

إرتجت القاعة بهتاف الملك فرناندو وهو يضرب بيده على مسند كرسى عرشه الذى يجلس عليه فى غضب فى إجتماع ضم الملكة والكاردينال دى ميندوزا والأسقف هيرناندو دي تالافيرا والقائد غونزالو فرناندیز دى كوردوبا ،وأمين سر الملك الكونت هيرناندو دى ثافرا:

_ تبًا لهذا الأمير الصغير ،كيف يجرؤ على تحدينا هكذا .

حاول الكونت هيرناندو دى ثافرا أمين سر الملك تهدئته قائلاً:

_ لقد بذلنا ما نستطيع يا مولاى ، وهزيمة ذلك الأمير الضعيف ليست إلا مسألة وقت ، لقد كان من الممكن هزيمته والقضاء عليه من قبل ، فهو ضعيف ليس له من الحزم والارادة ما يجعله يتصدى لمواجهتنا ، لولا فكرة تلك الرسالة التى وضعته فى مواجهة مباشرة مع أهل غرناطة حين طلبنا منه تسليم الحمراء .

قالها هيرناندو وهو يرنو بطرف عينيه فى خبث إلى الكاردينال دى ميندوزا الذى بادر قائلاً:

_ مولاى إن المسلمين لا يُهزمون بعدد ولا عدة ، فجميعنا نعلم أنهم دائمًا ما ينتصرون حتى ولو كانوا قلة ، وذلك بإتحادهم وكونهم على قلب رجل واحد وبإيمانهم فيما بعد الموت أكثر من إيمانهم بالحياة نفسها ، فمن السهل أن تتغلب على رجل يريد الحياة ولكن من المستحيل أن تفعل ذلك أمام رجل يريد الموت ، لذلك فإن هزيمة المسلمين والتفوق عليهم والإستيلاء على غرناطة لن تكون إلا بكسر إرادتهم وإضعاف عزيمتهم ، أما الحروب فقد يطول أمدها وتستنزف قوتنا .

هتف هيرناندو :

- وها قد جربت الحرب النفسية التى تريدها يا صاحب القداسة بذلك الطلب الذى لم يقبله الأمير الصغير، فماذا كانت النتيجة سيدى الكاردينال ..؟!! ، لقد خرج المسلمون بعدها ليعيثوا فسادًا فى الأراضى النصرانية المحيطة بهم ، وليحاولوا الاستيلاء على بعض الحصون والمراكز القريبة منهم مثل حصن أندرش وغيره من الحصون الهامة ، كما إستولوا على بعض القرى كالبذول وهمدان وغيرها ، وغنموا منها من الغنائم ما لا يُحصى ، وبدلاً من أن تهزمهم تلك الحرب النفسية المزعومة ، دبت فيهم روح جديدة تنزع إلى المقاومة ، مما دفع أهل البشرات ووادى آش للثورة على حكامنا وطلب العون من الأمير الصغير الذى أمدهم بالعون لمساعدتهم ليرحل البعض منهم إلى غرناطة ، والبعض الآخر إلى المغرب ، لتقفر تلك الأنحاء من سكانها من المسلمين ، مما دعى مولاى لإرسال جموع من النصارى لتعميرها مرة أخرى ، ولينتهز الأمير الصغير تلك الفرصة للإستيلاء علىعدد آخر من الحصون الهامة .

تراجع القائد دى كوردوبا فى مقعده قائلاً :

- ولا تنسى أيها الكونت ما حدث من أمر خطير حينما حاول الأمير الصغير فتح ثغر المنكب وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطئ المغرب ، وهى صلة يعلق عليها المسلمون آمال كبيرة لإستقدام الغوث من بلاد المغرب ،وإستيلاؤه على حصن شلوبانية ، لولا إستبسال حاميات بلش ومالقة ، و وصول مولاى بجيشه إلى مرج غرناطة بمساعدة المُدجنين قبل أن يعود مولاى إلى قشتالة مرة أخرى .

أشارت الملكة إيزابيلا بيديها قائلة :

- ما زلت أرى ما يراه الكاردينال دى ميندوزا ، يجب أن نكسر إرادتهم فيسلموا لنا المدينة دون عناء ودون قطرة دم مسيحية واحدة ، وسيساعدنا على ذلك ضعف أميرهم الصغير، فهو لا يفعل ما يفعله إلا بضغط من أهل غرناطة ، لذلك أرى أن نقطع أى إمدادات إلى المدينة ، وأن نبث بينهم عن طريق رجالنا روح الهزيمة والاستسلام .

هتف الكاردينال دى ميندوزا :

- أصبتِ يا مولاتى ، ولكنى أرى أن الأمير الصغير يعتمد بشكل كبير على قائده موسى بن أبى الغسان ، فهو من يدفعه ويشجعه على التصدى لنا والدخول مع قواتنا فى معارك من أجل إسترجاع بعض ما استولينا عليه من الأراضى والقرى والحصون المحيطة بغرناطة ، كما أن أهل غرناطة يت أثرون به كثيرًا ، فلو تخلصنا منه ربما عاد الأمير الصغير إلى رشده بعد أن يشعر بالضعف والوهن فى غياب أفضل قواده.

أشار إليه الملك فرناندو قائلاً:

- هذا أكبر خطأ ممكن أن نرتكبه يا صاحب القداسة ، فبقتله ستجعل منه بطل وستثير غضب الغرناطيين وكراهيتهم لنا أكثر.

قالها الملك وهو ينهض من مكانه ليخطو عدة خطوات مُفكرًا قبل أن يقول :

- لقد حان الوقت للإستيلاء على غرناطة ، فبقائها فى أيدى المسلمين يُذكى روح الثورة ويُحيى الأمل فى غيرها من المدن التى إستولينا عليها ، فلن تستتب لنا الأمور فى الأراضى التى أخضعناها لسيطرتنا إلا بسقوط غرناطة فى أيدينا وكسر شوكتها .

هتفت الملكة إيزابيلا :

- وما الذى ننتظره ..؟!! ، دعونا نبدأ إذن منذ الآن .

أشار الملك فرناندو للملكة قائلاً فى هدوء :

- لا تستعجلى الأمور يا مليكتى ، سيتم كل شئ كما تمنيناه وخططنا له ، ولكن بعد مرور أعياد الميلاد فلم يتبق عليها سوى أيام ، وبعدها سيكون لنا مع غرناطة وأميرها شأناً آخر.

ظل الجميع يتحدثون ويخططون من أجل مهاجمة غرناطة والاستيلاء عليها ، ولم يدر فى خلد أحدهم أن هناك من يستمع إلى كل كلمة ويستعد لنقلها إلى هناك ..

إلى غرناطة ...

****

إرتشف الشيخ عبد الله بضعة رشفات من مشروب اللوز الساخن فى تلك الليلة من ليالى شتاء غرناطة الباردة ، وهو يتطلع إلى عمر الذى جلس يتطلع إلى نيران المدفأة فى وجوم وهو يمسك بقدحه من ذات الشراب والذى لم يرتشف منه شيئًا ، فبادره الشيخ قائلاً:

- أما زلت تفكر بالأمر يا ولدى..؟!! ، إلى متى سوف تنتظران ..؟!!

تطلع إليه عمر قائلاً فى حزن:

- لم يحن الوقت بعد يا جد ، فلم يمر على وفاة أم فاطمة سوى بضعة شهور ، وما زال الحزن يخيم عليها ، وحزنها هذا يقطع نياط قلبى فأقف أمامها عاجزًا ، لا أستطيع التخفيف عنها مهما حاولت .

أومأ الشيخ برأسه فى تفهم قائلاً :

- أدرك ذلك يا ولدى ، ولكن موت الأم جرح لا يندمل أبدًا ، ولو إنتظرت أن تبرأ منه لقضيت عمرك كله فى الإنتظار.
- وماذا أفعل يا جدى ..؟
- يجب أن تساعدها وتُخرجها من حزنها ، ففاطمة لم يعد لديها أحد فى الدنيا سوانا ، فقد أصبحت وحيدة الآن ، وأنت الوحيد القادر على إعادة الابتسامة إليها مرة أخرى .

تطلع عمر مرة أخرى إلى نيران المدفأة المشتعلة وهو يتمتم فى حزن :

- ولكننى لم أعد أملك لا وقتى ولا حياتى يا جدى ، حتى لو تزوجت فاطمة فسأتركها وحيدة معظم الوقت ، إن لم يكن دائمًا ، فقد وهبت نفسى للجهاد فلم أعد أملك منها شيئًا.

ظهرت على وجه الشيخ علامات الحزن والألم حين شعر أنه من الممكن أن يفقد عمر يومًا ما مثلما فقد أباه وعمه من قبل ، ولكنه تمالك نفسه وهو يردف فى هدوء:

- أعمارنا وأقدارنا ليست ملك لنا يا ولدى ، فقد يقضى الإنسان نحبه على سريره وسط أهله دون سبب سوى حضور الأجل ودنو الساعة ، وقد يعيش فارسًا عمرًا مديدًا

وسط ضربات السيوف وطعن الرماح ، فالإنسان لا يملك من أمر نفسه شيئًا ، ولكن الله خلقنا وحمّلنا رسالة ما علينا سوى أدائها دون أن نعرف متى أو أين ستحين ساعة الرحيل وتنتهى الرحلة ، وحتى تحين تلك الساعة علينا أن نحيا كما أمرنا ونُحسن الظن به .

أطرق عمر رأسه متفكرًا فيما قاله جده لبرهة من الوقت ، ثم رفع رأسه قائلاً:

- وهل تظن أن فاطمة ستوافق على ذلك يا جدى ..؟!!

أومأ الشيخ عبد الله برأسه وقد ظهرت على وجهه إبتسامة الرضا قائلاً:

- إترك لى أمر فاطمة ، المهم أن تستعد أنت قبل أن يشغلك الجهاد وتخرج له من جديد.
- حسنًا يا جدى ، أعدك أن أُسعد فاطمة وأحافظ عليها .
- أعرف يا ولدى مدى حبك لفاطمة وخوفك عليها منذ أن كنتما صغيرين ، وها هو الله يُقدر الجمع بينكما ، ليريح قلبى وأطمئن عليكما قبل أن أغادر تلك الدنيا .
- حفظك الله لنا يا جدى وأدامك فوق رؤوسنا .

لم تمر أيام على حديث الشيخ عبد الله مع حفيده عمر حتى كان عمر قد تزوج من فاطمة فى إحتفال بسيط حضره أصدقاء عمر والقائد موسى ، ليبدأ عمر وفاطمة حياة جديدة يحدوها الأمل .

ولم يمض على زواجهما بضعة أيام أخرى حتى ضرب القشتاليين الحصار حول غرناطة .. لينشغل عمر وصحبه بأمر الجهاد ..

وليبدأ فصل جديد من فصول الصراع ..

أو بمعنى أدق

الفصل الأخير...

****

معسكر القشتاليين . قرية عتقة . خريف عام 1491 م

****

وقفت الملكة إيزابيلا تتطلع شاردة من نافذة قصرها فى مدينة سانت افى أو مدينة الإيمان المقدس التى شيدها وسَوَّرها الملك فرناندو فى وقت قياسى فى المكان ال ذى عسكرت فيه القوات القشتالية فى قرية عتقة على ضفاف نهر شَنيل على بُعد فرسخين من غرناطة ، فقد خرجت مع زوجها الملك فرناندو على رأس جيش كبير لمحاصرة غرناطة وإسقاطها ، بعد أن قررا القضاء نهائيًا على تلك القوة الاسلامية الباقية والاستيلاء على أراضيها وخيراتها .

صحيح أن الهدف من تلك الحرب هو نشر العقيدة الكاثوليكية المقدسة والقضاء تمامًا على الإسلام فى تلك الإ نحاء وهو الخطر الذى يهدد مُلكهما ، إلا أن ذلك لم يكن السبب الرئيسى وراء تلك الحرب وإنما هى الرغبة فى توسيع مُلكهما والحصول على خيرات تلك الأراضى وضمها لمملكتهما ، وهو ما جعلهما يسعيان لمباركة البابا بمخاطبته وإخباره بعزمهما السيطرة على غرناطة بقولهما :

(نحن لسنا ولم نكن مدفوعين للقيام بهذه الحرب رغبةً فى الحصول على دخل أكبر أو طلبًا لجمع الثروة ، فلو أننا أردنا أن نوسع سلطاننا ومن وارداتنا بمخاطر ونفقات أقل من ذلك بكثير لكان بوسعنا أن نفعل ذلك ، ولكن الرغبة التى تدفعنا خدمة الرب وحماستنا التى جرّتنا إليها هذه الغاية ، وهكذا يدفعنا الأمل إلى نشر العقيدة الكاثوليكية المقدسة ، وتخليص العالم المسيحى من هذا الخطر العنيد الذى يقبع عند أبوابنا).

لقد كانت غرناطة هى آخر معاقل الإسلام فى الأندلس ، ضعيفة وحيدة ، إنقطع عنها المدد والعون من كل جانب ، فأصبحت صيداً سهلاً ، وها هى الآن تزفر الزفرة الأخيرة التى تسبق النهاية ، لتنضم بعدها إلى أملاك التاج القشتالى .

أفاقت إيزابيلا من شرودها على صوت دخول الملك فرناندو للخيمة الملكية يتبعه كل من الكاردينال دى ميندوزا والقائد دى كوردوبا ، الذين أديا التحية للملكة قبل أن تأذن لهما بالجلوس ، والملك يهتف :

- تبًا لهؤلاء المسلمين ...، إلى متى سيظلون صامدون ، فنحن لم ندخر وسعًا ولم نترك وسيلة لإحكام الحصار حول المدينة وإرهاقها وإرغامها على التسليم إلا وفعلناها .

تنحنح الكاردينال دى ميندوزا قائلاً:

- لقد أضحى سقوط غرناطة مسألة وقت يا مولاى ،فلم يعد لديهم خيار آخر ، ولولا بقية باقية من روح المقاومة التى تتمثل فى قائدها موسى وقلة قليلة معه ، لسقطت قبل ذلك ، فهم يتصدون للطوفان بصدور عارية متوهمين أنهم سيغيرون شيئًا ، ولكن هيهات ... فقد خرجت الأمور من أيديهم ، ولم يصبح أمامهم إلا التسليم والخضوع للأمر الواقع .

أومأ الملك برأسه قائلاً:

- لقد أخبرتنا عيوننا داخل غرناطة أن الناس قد ضجوا من الجوع والحرمان ، ودب اليأس فى قلوبهم وقلوب الجند،وشحت الأقوات ، بعد أن قمنا بشن هجماتنا على المزارع المحيطة بالمدينة للتضييق على أهلها ، وقطعنا الطرق الممتدة من غرناطة إلى البشرات والتى كان يأتيهم منها الزاد ، فأصبحوا بين شقى رحى ، إما الموت أو التسليم.

أشار القائد دى كوردوبا قائلاً:

- ليس هذا فحسب يا مولاى ، وإنما قطعنا أيضًا عليهم أى علاقة لهم بالخارج وعزلناهم تمامًا سواء من البر أو البحر ، فقد رابضت السفن الأسبانية فى مضيق جبل طارق وعلى مقربة من الثغور الجنوبية لتحول دون وصول أية إمدادات من إفريقية ، هذا إن كان هناك أدنى أمل فى وصول غوث أ و مدد من الأساس ، فإمارات المغرب الواقعة فى الضفة الأخرى تعانى جميعها من الضعف والتفكك والإنشغال بأمورهم الداخلية .

كانت إيزابيلا صامتة تمامًا فلم تنبث ببنت شفة ، مما جعل الملك يلتفت إليها قائلاً :

- ما بال مليكتى صامتة اليوم ..؟، ظننتك ستسعدين بقرب سقوط غرناطة وتحقيق حلمنا الذى سعينا إلى تحقيقه منذ سنوات .

تطلعت إليه إيزابيلا فى وجوم قائلة:

- ولكنها لم تسقط بعد ، لن يهدأ لى بال قبل أن أطأ تلك البقعة وأسمع الأجراس وهى تدق فيها وصوتها يملأ الأرجاء .
- لا تقلقى يا مليكتى ، فلن نعود أدراجنا إلا بعد أن تكون غرناطة مملكة مسيحية تابعة لمملكتنا يرفرف عليها علمها ، وترتفع فيها الصلوات تمجيدًا للرب .
- أنا أعيش على هذا الحلم منذ سنوات يا فرناندو ، وأشعر أنه قد حان الوقت لتحقيقه ، فقد أفنيت حياتى فى خدمة الرب ، وأريد أن أتوج حياتى بضم تلك الأراضى لمملكتنا ونشر الكاثوليكية فى ربوعها ، وإسقاط آخر أجزاء دولة الأندلس ، تلك الدولة التى قامت على أرضنا و أذلتنا كثيرًا .

هتف الكاردينال دى ميندوزا فى خشوع:

- فليحفظكم الرب يا مولاتى ، وليُجرى على يديكم مشيئته الأبدية .

****

دوت عدة طرقات على باب منزل الشيخ عبد الله الغرناطى ، فأسرعت فاطمة لتستقبل القادم الذى لم يكن سوى عمر الذى عاد بعد أسابيع قضاها مع أقرانه فى الدفاع عن أسوار غرناطة ، كان اللقاء حارًا بين الزوجين الذين باعدت بينهما ظروف الحصار ، ولم يكد يستقر بهما المقام حتى بادرها عمر قائلاً:

- طمئنينى عليكم يا فاطمة ..؟، تالله لقد إشتقت إليكم يا مُنية القلب .
- لقد أصبحنا بخير الآن يا عمر ، فلم أشعر بالحياة منذ رحلت إلا الآن حين رأيتك وشعرت بوجودك يا رفيق الدرب .

أمسك عمر بيديها فى حب هامسًا :

- لا أعرف كيف يمر الوقت بدونك يا فاطمة، ولولا إنشغالنا بالجهاد وقتال العدو ، ورسالة آلينا على أنفسنا حملها ، ما كان للقلب صبرًا فى بُعدك يا حبيبة .

تطلعت إليه فاطمة فى حنان جارف قائلة :

- غرناطة هى الحب الأكبر يا عمر ، هى الأرض والحياة ، هى الأم والأخت والحبيبة والإبنة ، هى ندى الصباح حين يتلألأ على زروعها وكأنه حبات من الماس تنفرط من عقدها ، هى إشراقة شمس تحتضن القلوب لتمنح لها فرصة جديدة فى الحياة كل يوم ، هى أذان يُرفع باسم الحق ليحنى جباه الجبابرة ويرفع هامات الساجدين ، هى تراتيل الآيات تنساب كالماء الجارى لتُطهر قلوب المؤمنين ، هى سكون الليل يحتوى آلام المُتعبين ويجبر كسر المستضعفين ، هى فجر ينبلج عن أمل فى رحمة الله فى جمع شتات أمة فرقتها المصالح والأهواء لتجمعها كلمة سواء .

أطرق عمر فى حزن وهو يتمتم :

- غرناطة تضيع من أيدينا يا فاطمة ، فى كل يوم أرى فيه شمسها تغيب ، ونجمها يأفل ، إشتد بها الحصار وقضى خيرة فرسانها ، حتى خيولها باتت تموت قهرًا وغاب صهيلها ، لقد ضيعناها يا فاطمة وضِعنا معها .

أمسكت فاطمة بوجهه وأدارته ناحيتها فى بطء وهى تقول :

- لم تضع بعد يا عمر ، ما زال هناك أمل طالما أن هناك فرسان ما زالوا يتقلدون سيوفهم ، فرسان يرفضون الهزيمة والتسليم ، فرسان عاهدوا ربهم على النصر أو الموت ، طالما أن هناك قلوب مؤمنة ترفع قلوبها قبل أكفها بالدعاء ، تلهج بذكر مالك الملك ، هؤلاء لا يمكن هزيمتهم أبدًا ولا كسر إرادتهم.
- الفرسان يتساقطون فى الميدان ، والمؤمنون الصادقون يُحاربون فى كل مكان ، لم يتبق بها مكان سوى للخانعين يا فاطمة ، من يرتضون أن يحنوا رؤسهم من أجل الأموال والأقوات والأهل والولد ، ولا يرفعون رؤسهم لمواجهة عدوهم ، ضاقت الحياة وشحت الأرزاق فنسى الناس العقيدة والمبدأ ، نسوا الأرض والعرض ، ولم يبتغوا سوى عَرَض الحياة الدنيا .

سعلت فاطمة فى شدة وهى تتمتم فى وهن حاولت إخفاؤه :

_ لن يجرى فى أرض الله إلا ما أراد الله يا عمر ، هى مقادير تجرى فى أَعِنَتها ، ليس لنا فيها من الأمر شئ إلا أن نؤدى أمانتنا التى حُملّنا بها ، فإن أراد الله أن نرى ثمار جهادنا فى الدنيا فَنِعّمًا بها ، وإن سبقنا الموت فليس لنا فى دنياهم شئ ، فالآخرة خير وأبقى .

كانت فاطمة شاحبة الوجه واهنة وقد إزدادت نحافة عن آخر مرة رآها فيها عمر ، وقد لاحظ ذلك بالرغم من أنها كانت تحاول جاهدة فى إخفاؤه ، مما جعله يتطلع إليها فى قلق ، وهو يهتف:

_ ما بكِ يا فاطمة ..؟، فأنتِ لستِ على ما يرام ، تبدين مريضة ومتعبة .

إبتسمت فاطمة فى وهن ، وهى تهتف مُداعبة لعمر :

_ ربما هو غيابك يا رفيق الروح هو ما أوهن الجسد ، وأتعب القلب ، وحيّر الروح ، ولكن مجيئك الآن قد أذهب كل بأس ، وألبسنى حُلة العافية .

أردف عمر فى قلق :

_ لا تُخفى عنى يا فاطمة ، فلم يبق لى سواكِ أنتِ وجدى .

تطلعت إليه فاطمة فى رقة قائلة :

_ أنت هنا الآن يا عمر ، وهذا يكفينى لأكون بخير ، لا تقلق علىّ فستجدنى دائمًا فى إنتظارك .

شيئًا ما فى نظرات فاطمة لم يرح قلبه ، شيئًا شعر به وكأنه يعتصر قلبه بلا رحمة ، شيئًا لم يدركنهه ولم يعرف له سببًا ولكنه شعر به فحسب ، شئ جعله يصمت وهو يتطلع إليها فى قلق ، مما جعلها تردف فى إرتباك محاولة صرف إنتباهه :

_ ألم تشتاق للجد ..؟

نجحت فاطمة فى صرف إنتباهه ، فقد هتف :

_ كم أنا مشتاق إليه ..؟!! ، تُرى أين هو الآن ..؟!

_ لقد رفض البقاء بالبيت وغرناطة تتعرض للهجوم ، فهو يقضى جل وقته فى المرابطة على أبواب غرناطة وأسوارها .

هز عمر رأسه وهو يتنهد فى عمق قائلاً :

_ واااه لك يا جد ، أتعبتنا فى تتبع مسيرتك وخطاك ، فها أنت وقد قاربت الثمانون ولا زلت تصر على الجهاد وترفض البقاء بالبيت ، فما حجتنا نحن إذا إستسلمنا لليأس والحزن .

إبتسمت فاطمة وهى تردف :

_ هذا هو جدنا ، وهذا ما علّمنا إياه وزرعه فينا ، فمن أنّى لنا باليأس ...؟!!

_ صدقتِ يا فاطمة .

_ ستجده الآن عند سور غرناطة بالقرب من باب البيازين ... إذهب إليه فهو فى شوق إلى رؤياك .

_ لقد إشتقت أنا أيضًا إلى رؤياه والحديث معه الذى أفتقده كثيرًا .

لم يمض بعض الوقت حتى أنطلق عمر ليرى جده قبل أن يعود إلى معسكره ، بعد أن ودع فاطمة على أمل اللقاء ، ولكن فاطمة التى ودعته بإبتسامة حانية كانت تشعر وكأنها تودعه ... للمرة الأخيرة...

****

كان الشيخ عبد الله الغرناطى من المجاهدين الذين قضوا عمرهم بالجهاد فى سبيل الله ، ولم يكتف بذلك وإنما وهب ولديه أيضًا للجهاد حتى إصطفاهم الله للشهادة فى ريعان شبابهم تاركين له حفيديه فاطمة وعمر الذى دربه وأعده منذ الصغر ليكون خير خلف لخير سلف ، وليواصل مسيرة أبيه وعمه وجده فى الجهاد ، لذلك لم يقنع الشيخ بالركون إلى الراحة وقد قارب الثمانون من عمره ، وفضّل مشاركة المجاهدين فى الدفاع عن أسوار غرناطة وحراستها .

كان الشيخ يقوم بنقل الحجارة عند السور ويوجه الرجال ليأخذوا أماكنهم ويكونوا على أهبة الإستعداد تحسبًا لأى هجمات من العدو القشتالى على أسوار المدينة ، كان يفعل كل ذلك

بهمة وعزم شاب فى العشرين من عمره ، حين رآه عمر إنطلق إليه فعانقه بشدة ثم إنحنى على يديه ليُقبلها ، ويحمل عنه ما كان يحمله ، حتى إستقر بهما المقام والجد يطمئن من عمر عن أحوال الميدان وحال الجند وأخبار القتال ، وعمر يخبره حتى صمت الإثنان لبرهة ، فبادر عمر قائلاً:

_ ما بها فاطمة يا جدى ..؟، أشعر أنها ليست على ما يرام .

تطلع الشيخ بعيدًا عن عمر وهو يصب له مشروب ساخن صنعه له :

_ ألم تطمئن عليها يا ولدى .
_ بلى .. ولكنى قلق عليها ، فقد بدت مُتعبة وضعيفة .
_ لا تقلق على فاطمة ، ربما تكون مُرهقة من أعمال البيت التى تقع على كاهلها ، فهى ضعيفة البنية كما تعرف .... دعك من هذا الآن وأخبرنى ... أما من أخبار جديدة عن الوليد والحسن ..؟

قالها الشيخ بصوت خافت وهو يتلفت حوله حتى يتأكد أنه ليس هناك من يُنصت إلى حديثهما ، وعمر يُجيب عليه فى خفوت :

_ هم يمدوننا بمعلومات هامة أولاً بأول عن تشكيلات المقاتلين القشتاليين وأعدادهم ومخططاتهم ، ولكنهم يتحملون ما لا طاقة لأحد به يا جدى.
_ هذا قدرهم يا ولدى وقد إرتضوه من أجل غرناطة .
_ ولكن الأمور تزداد سوءًا يومًا بعد يوم.
_ لن تسقط غرناطة يا ولدى وفينا رجال لا يرتضون المذلة ولا الخضوع ، ستسقط فقط حين نستسلم لليأس والخنوع فنصير أذلة من بعد عز وفخار ، حين نطلب الدنيا وبهرجها وننسى الآخرة .
_ إن القائد موسى ومعه القائدان نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة ، يبذلون قصارى جهدهم فى تنظيم السرايا وإعداد الجند وقيادتهم فى المعارك التى تدور بيننا وبين العدو القشتالى من وقت لآخر .
_ لا تتركوا موسى وحده يا ولدى ، كونوا له عونًا وسندًا .

- إن الفرسان جميعًا يحترمو نه وينفذون أوامره بدقة يا جدى ، فقد أنعم الله علينا وعلى غرناطة بفارس مثله ، قلما يجود الزمان بمثله ، فلطالما يحمسنا ويُذكى داخلنا روح الحماس قائلاً : (لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الإسم والوطن) .
- صَدق يا ولدى ، لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها بعد أن سقطت الأندلس حاضرة تلو أخرى بعد أن إنفرط عقدهن فضاعوا وأضاعوا حضارة أنارت الدنيا ، لم يبق منها سوى غرناطة ، فإذا سقطت ضاع معها آخر معالم تلك الدولة العظيمة التى قامت يومًا على أرض الأندلس ليشهد لها القاصى والدانى .
- ولكن الحصار يشتد ، وقد بلغت القلوب الحناجر .
- ليس لها من دون الله كاشفة ، أوصيك وصحبك يا ولدى أن تثبتوا على ما ربيتكم عليه حتى آخر فارس فيكم ، فنحن لسنا أهل ضعف وإستسلام ، بل لقد بعنا أرواحنا لله من أجل بقاء الإسلام ورفعته فى تلك الأرض ، فلسنا نحن من نحنى الجباه أو نخضع من أجل عرض من الدنيا أو خوفًا على حياتنا ، ومن أجل غرناطة التى وقفت صامدة حتى الآن فى وجه أعتى الخطوب والمحن ، إن عظمة غرناطة تكمن فى هويتها فإن هى فقدتها ضاعت مثلما ضاعت غيرها من مدن الأندلس ، وهذا دورنا يا ولدى ، فدورنا ليس فقط فى الحفاظ على الأرض ، وإنما أيضًا فى الحفاظ على هويتنا التى نُحارب من أجلها ، ذلك هو قدرنا يا ولدى .

قالها الشيخ عبد الله وقد سرح ببصره هناك ...

فى مروج غرناطة ...

حيث يكمن المستقبل الغامض لتلك الأرض

****

الفصل الخامس

****

الحياة دائمًا تُفاجئنا كل يوم بجديد ، تغرب الشمس هنا فتُشرق فى مكان آخر ، يأفل نجم أنار لياليناليبزغ آخر ربما أشد سطوعاً ، نخسر الرفاق فى رحلتنا فيجود علينا الزمان بغيرهم ، نحلم فنطير مع أحلامنا بأجنحة من أمل ، تساعدنا الرياح تارة ، وتصدنا أخرى ، فيختلف مسار رحلتنا أو تتغير أحلامنا ، ولكن يبقى الحلم هو سر الحياة نحيا به ومن أجله ، والقلب مثل الدنيا ، هناك دائماً مكان فيه لبداية جديدة ، وشراع الروح يُبحر فى بحار الحياة المتلاطمة الأمواج ، تارة تعلو فتسمو الروح وترتفع وكأنها تُلامس السماء ، وتارة تهبط لتسقط الروح فى أعماق مظلمة ، فلا تلبث إلا أن تعود لترتفع مرة أخرى ، أحوالنا تتبدل وتتقلب فلا سعادة تبقى ولا حزن يدوم ، ونحن بين هذا وذاك .

بدأت الشمس فى إرسال أشعتها الذهبية فى تلك الساعات الأولى من الصباح على تلك الناحية من ضفاف نهر شنيل أو نهر الثلج كما يُسمى ، لتعانق مياه النهر التى تلألأت وهى تحتضن الأشجار والزروع التى إنتشرت على ضفتى النهر .

وعلى ضفاف النهر جلس أندريا شاردًا وقد إرتسمت على وجهه علامات حزن عميق ، كان يشعر بالغربة وسط هؤلاء القشتاليين الذين يحتفلون يوميًا بحصار وتجويع غرناطة وأهلها ، كانوا يرقصون على آلام البسطاء من أهلها ، ويتجرعون نخب دماء فرسانها التى تُراق لتروى أراضيها التى عاشت لتشهد بطولاتهم وتضحياتهم من أجل غرناطة الأبية ، كان يشعر بحنين كبير إلى غرناطة وأهلها وصباحاتها ولياليها، كم إشتاق إلى الشيخ عبد الله وحديثه ، وتلك الأمسيات التى كان يقضيها مع صحبه وإخوانه على ضفاف نهر شنيل ، فبالرغم من وجود صديقه ألفونسو بجانبه والذى يهون عليه كثيرًا ، وبالرغم من إدراكه لأهمية المهمة التى كلفهم بها القائد موسى إلا أن رغبته فى الإنضمام إلى صحبه والقتال بجانبهم تكاد تملك عليه قلبه وعقله .

ظل أندريا شاردًا إلى أن أفاق على صوت رقيق يشبه مياه النهر فى عذوبته ، فإلتفت ليجد فلوريندا والتى وقفت تتلألأ كمياه النهر فى ثوبها الوردى الرقيق وشعرها الذهبى الذى إنسدل على كتفيها وهى تتمتم فى رقة :

_ لماذا أراك دائمًا شارد ، وكأنك تعيش فى عالم آخر غير عالمنا ...؟!!

همَّ أندريا بالنهوض ولكنها أشارت إليه بالبقاء ، لتجلس هى فى مواجهته وهى تردف :

_ وكأنك تفتقد لأهلك وقريتك ..... أو حبيبتك.

تطلع أندريا إلى النهر الذى شعر وكأنه يجرى ليأخذ قلبه معه إلى ربوع غرناطة حيث الأهل والأحبة قائلاً:

_ أحيانًا يفتقد الإنسان نفسه أكثر من إفتقاده للآخرين .

عقدت فلوريندا حاجبيها فى تساؤل قائلة :

_ وكيف يفتقد الإنسان نفسه وهى تحيا بين جنبيه ، لا تفارقه .

تنهد أندريا بعمق وهو يُردف قائلاً:

- يفتقد الإنسان نفسه حين يتمنى أن يعود به الزمان إلى ما كان عليه يومًا ، أن تعود إليه براءته الأولى ، فتتراقص على مُحَيَّاهُ تلك الإبتسامة التى تنبع من القلب ، وتتردد ضحكاته الصافية بين رفاق الطفولة والشباب ، حين يتذكر تلك الأحلام التى هجرته بعد أن داعبت مُخيلته يومًا ليشعر أن أيام العمر أقصر من أن تحتويها ، حتى همومه التى كانت تُثقل قلبه ظنًا منه أنها جبال تُجثم على صدره ، يشتاق إليها حين يدرك أنها لم تكن شيئًا أمام ما يحياه الآن .

تطلعت إليه فلورينِدا فى حب وهى تشعر أن قلبها يكاد يعتصر حزنًا من أجله ، فأردفت وهى تحاول التخفيف عنه قائلة :

- ولكن الحياة دائمًا تُفاجئنا كل يوم بجديد ، تغرب الشمس هنا فتُشرق فى مكان آخر ، يأفل نجم أنار لياليا ليبزغ آخر ربما أشد سطوعًا ، نخسر الرفاق فى رحلتنا فيجود علينا الزمان بغيرهم ، نحلم فنطير مع أحلامنا بأجنحة من أمل ، تساعدنا الرياح تارة ، وتصدنا أخرى ، فيختلف مسار رحلتنا أو تتغير أحلامنا ، ولكن يبقى الحلم هو سر الحياة نحيا به ومن أجله ، والقلب مثل الدنيا ، هناك دائمًا مكان فيه لبداية جديدة ، وشراع الروح يُبحر فى بحار الحياة المتلاطمة الأمواج ، تارة تعلو فتسمو الروح وترتفع وكأنها تُلامس السماء ، وتارة تهبط لتسقط الروح فى أعماق مظلمة ، فلا تلبث إلا أن تعود لترتفع مرة أخرى ، أحوالنا تتبدل وتتقلب فلا سعادة تبقى ولا حزن يدوم ، ونحن بين هذا وذاك .

أدار أندريا وجهه ليتطلع إلى فلورينِدا ، فقد شعر أنه يراها للمرة الأولى ، لم يكن يراها من قبل سوى دمية جميلة مُدللة ، لم يكن يتخيل يومًا أن خلف ذلك الجمال السطحى جمال آخر أروع وأكثر عُمقًا ، إنه جمال الروح الذى لا تراه العيون وإنما يشعر به القلب وتنجذب إليه الروح ، وهو ما جعله يتمتم فى هدوء:

- كنت أظنك لا تهتمين بشئ سوى مظهرك وتلبية رغباتك التى تعودتى من الآخرين على الإستجابة لها ، لم أتوقع أبدًا أن يكون خلف ذلك المظهر المدلل تلك الحكمة .

- لأنك لم تهتم يومًا برؤية شئ آخرغيرما تراه بالفعل ، فأنت لا ترغب فى النظر للدنيا سوى من الجانب الذى تقف فيه فقط .

أومأ أندريا برأسه وهو يقول فى وجوم :

- أعتقد أن هذا ينطبق علينا جميعًا ، فها نحن أمامك ، لم نفكر فى نساء غرناطة وأطفالها وشيوخها حين قطعنا عنهم المدد ، وتركناهم يقاسون أهوال الحصار من أجل إخضاعهم وإذلالهم لُيسلموا مدينتهم ، ولِيزدادوا هم جوعًا وألمًا ، وفى كل ليلة من ليالى الحصار نرقص ونشدو وننتشى على آلام هؤلاء المساكين ، الذين لا ذنب لهم سوى أنهم يدافعون عن أنفسهم ومدينتهم .
- هل تصدقنى إذا قلت لك أننى أمقت تلك الحرب وما يُفعل فيها ، بل وأمقت وجودى هنا فى ذلك المعسكر وأتطلع كل يوم للعودة إلى قشتالة مع أبى .

تطلع إليها أندريا وهو يهتف فى سخرية :

- غريب أن يكون هذا رأى إبنة الكاردينال دى ميندوزا مستشار الملكة وأحد أهم رجال تلك الحرب .
- ربما تكون قضيت بعض الوقت بالقرب من أبى ، ولكنه غير كافٍ لتعرفه عن قرب ، فأبى ليس رجل دين بقدر ما هو جندى ورجل دولة ، ربما كان مقرب من الملكة إيزابيلا التى تشتهر بتعصبها الشديد ، ولكنها تأخذ عليه دائمًا حياته الدنيوية بعكس الأساقفة المتشددين أمثال الأسقف دي سيسنيروس والأسقف دي تالافيرا وغيرهم ، وقد رأيت بنفسك كيف يصرف جل إهتمامه فى الأعمال الخيرية.

صمتت فلوريندا قليلاً وهى تتطلع إلى أندريا لتنظر فى عينيه مباشرة :

- صدقنى يا أندريا .... لا أحد يرغب فى الحرب ، حتى هؤلاء الجنود الذين تراهم يحتفلون كل ليلة ، إنهم يحتفلون بنصر لن يجنوا منه شيئًا ، نصر يصنعوه من أجل مجد وأطماع ملوكهم ، دعك من صبغة الحرب المقدسة التى يُضفيها رجال الدين على تلك الحرب اللعينة ، فالرب لم يأمرنا بقتل الآخرين وتطهير الأرض منهم ، وإنما خلق

الأرض لتسعنا جميعًا ، أياً كانت عقيدتنا ومهما إختلفت مذاهبنا ، فنحن نتعبد جميعًا إلى رب واحد ، رب يبغض الدماء ويحرّمها .

ذهل أندريا من حديثها ، فهو لا يصدق أن يكون هذا هو تفكير إبنة أحد القواد القشتاليين ، ولكنه حاول كتمان ما تموج به نفسه حتى لا يفتضح أمره فعاد يتطلع إلى النهر قائلاً:

- لن يُغير هذا من الأمر شئ فنحن جميعًا مشاركون فى تلك الحرب ، لم يعد لدينا خيار آخر سوى إستكمال الطريق حتى نهايته ، فلم يبق أمامنا سوى أن نتجرع كؤسنا حتى نهايتها ، ذلك هو قدرنا .

حاولت فلوريندا تغيير دفة الحديث التى شعرت أنه قد زاد من شجونه ، فهتفت قائلة :

- ألم تفكر فى العودة إلى قريتك ..؟

شعرت فلوريندا بالخيبة فقد عاد الحزن ليكسو ملامح وجهه وهو يتطلع إلى الفراغ أمامه وكأنه يرى مدينته رأى العين وهو يقول فى هدوء:

- أفكر فيها دائمًا ، وأحن إليها ، أشتاق أن تعانقنى سماؤها وتحتضن أرضها جسدى ، أشم رائحة دورها وزروعها ، أكاد أشعر بطمأنينة وجوه شيوخها ، وبشغف الصحب والرفاق ... يخبرنى قلبى بقرب اللقاء ، وتُمنينى الروح بإجتماع لا فراق بعده .

كانت فلوريندا تتطلع إليه بحب وإعجاب وقد تيقنت أنه قد سلب قلبها وعقلها ، فقد نسيت الحرب والصراع وتمنت لو أنها ذهبت معه فى عالمه ، هناك حيث قريته البسيطة التى يعشقها ، وأحلامه النقية التى لم تتلوث بعد ، بعيدًا عن عالمها الذى يمتلئ بالحقد والكراهية والأطماع ، أما هو فلم يشغل باله سوى حبيبته الوحيدة التى يشعر بحنين جارف إلى لقائها ..

إنها غرناطة ....

****

هبت الرياح الباردة قوية على تلك الأنحاء التى يعسكر فيها قوات غرناطة ، فى مواجهة القوات الصليبية التى ضربت بحصارها حول أسوار غرناطة ، وقد تجمع الفتية السبعة الباقيين حول تلك النار التى أشعلوها للتدفئة فى معسكرهم خارج أسوار غرناطة ، وزياد يتمتم :

_ لقد طالت مدة الحصار ، وشحت الأقوات ، وتسلل اليأس إلى قلوب الناس ، حتى تلك المواجهات بيننا وبين القشتاليين لا تُسفر عن جديد ، فلا نحن نتقدم ولا هم يتراجعون .

غمغم عبد الرحمن وهو يعد لهم بعض الشراب الساخن :

_ ما زال الأمل موجود يا زياد ، فنحن لم نستسلم بعد .

هتف يوسف فى حنق قائلاً:

_ ولكننا لا نفعل شئ سوى أننا نرد هجماتهم أونَغير على معسكراتهم بسرايا صغيرة ، وهذا لن يجعلنا نكسب حرباً .

أردف عبد الرحمن :

_ أحيانًا يكون الصمود فى حد ذاته إنتصار.

أشار يوسف بيديه وهو يتناول قدحه :

_ وأحيانًا أخرى يكون تمهيدًا للإستسلام ، فالصمود وحده لا يكفى ، فهو يحتاج لفعل يجعله يتحول إلى مقاومة ، يجب علينا أن نُمسك زمام المبادرة ، لا أن يقتصر دورنا على الدفاع ورد الفعل فقط .

تمتم حكيم وهو يمد يديه أكثر بالقرب من النار لكى يحصل على المزيد من الدفء :

_ لا أدرى لماذا أشعر أننا لن نُهزم من قلة أو ضعف ، وإنما سيهزمنا الخنوع واليأس الذى ملأ نفوس الناس فى غرناطة .

أردف هشام قائلاً:

_ لم يعد عندى أمل فى الناس ، فقد أصبح معظمهم ينظرون إلى غرناطة على أنها مجرد أرض ولدوا وعاشوا فيها ، ترتبط بها مصالحهم وحياتهم وأقواتهم ، لم تعد المسألة بالنسبة لهم مسألة عقيدة أو مبدأ ، لذلك سيسلمون لمن يؤَّمن لهم أقواتهم .

أومأ حكيم برأسه قائلاً:

- لا تنس أن عدد كبير منهم لجأ إلى غرناطة بعد سقوط مدنهم فى يد الملوك الكاثوليك ، فغرناطة لم تكن بالنسبة لهم سوى أرض لجأوا إليها واحتموا بها .

أشار علىّ إليهم وهو يهتف :

- لا تظلموا الناس ، فمن الطبيعى أن يؤثر الحصار والتجويع وضيق الحال على العامة ، فمنهم الضعيف والفقير والمحتاج ، ومنهم النساء والشيوخ والأطفال ، ومنهم رب الأسرة الذى يخشى على أهله من الهلاك ، هم ليسوا جنود فى الميدان .

أردف زياد قائلاً:

- ومنهم أيضًا من يخشى على أمواله وعلى حياة الترف التى يحياها ، ومن يخشى على مُلكه ، فيؤثر الخنوع والإستسلام عن الصمود والمقاومة.

هتف عمر الذى كان مشغولاً بتنظيف سيفه ، وقد رفع رأسه وتطلع إليهم :

- مهما كان الأمر ، لن يسمح أهلها بسقوطها ، لن نسمح أبدًا بسقوط آخر معاقل الإسلام فى أرض الأندلس ، لن تخبو تلك الحضارة بهذه السهولة ، لو حدث ذلك سيكون السقوط مدوى ، ولن يسمح الملوك الكاثوليك بالوجود الاسلامى فيها ، لن يتركوا فيها مسلمين ، فهذا سيشكل خطرًا كبي رًا عليهم ، وسيفعلون بها كما فعلوا بغيرها من المدن التى سقطت وربما أسوأ .

ساد الصمت بين الرفاق ، فحاول علىّ التخفيف من حدة التوتر الذى ساد المكان ، مما جعله يهتف قائلاً:

- هل تذكرون يا رفاق ، حينما كنا نجتمع على ضفاف النهر فى تلك الأمسيات الخالية ، كان لكل منا حلمه الذى عاش يحلم به ، كان كل منا يخطط لحلمه وكيف سيحققه .

إبتسم هشام بحزن وهو يردف فى سخرية مؤلمة:

- كانت أحلامنا وقتها تكاد تُطاول عنان السماء .

أردف عبد الرحمن وقد سرح بنظره بعيدًا :

_ الحرب تقتل كل شئ يا فتى ، فهى تقتل براءة الأطفال ، وتثكل الأمهات والزوجات ، وتزرع الخوف والقهر فى قلوب الرجال ،الحرب تبتلع كل الألوان فلا يبقى غير لون القهر ، تُفرق الأحبة وتقتل أحلام الفتية .

هتف علىّ فى مرح مصطنع :

_ لم أعهدكم هكذا يا أصدقاء ، أين ما تعلمناه من شيخنا عبد الله..؟!! ، أين ذهب ذلك اليقين وتلك الثقة ..؟!! ، نحن لم نستسلم بعد ، ما زالت سيوفنا فى أيدينا وإيماننا داخل قلوبنا ، فالحرب لم تنتهى بعد.

قاطعهم صهيل ذلك الفرس الذى توقف بالقرب منهم ليهبط فارسه من عليه ، ويتوجه إليهم مباشرة ، لم يكن ذلك الفارس سوى رسول من القائد موسى ، مما جعل الفتية يهبون من أماكنهم ، ويوسف يهتف :

_ خيرًا يا أخى ، فما جاء بك فى هذا الوقت المتأخر إلا أمر جلل .

أومأ الرسول برأسه فى وجوم وهو يتطلع إليهم ، وحكيم يستحثه فى قلق :

_ ماذا هناك يا رجل ..؟ ، هل وقع مكروه....؟

تنحنح الرجل فى حرج وهو يتمتم :

_ لقد أرسلنى سيدى القائد موسى فى طلب القائد عمر .

تطلع الجميع إلى عمر فى قلق والأخير يهتف :

_ هل جدى عبد الله بخير ..؟

حاول الرسول أن يتمالك نفسه وهو يتمتم فى حزن :

_ بل هى زوجتك يا سيدى ، لقد إشتد المرض عليها و.....

بتر رسول القائد موسى كلماته ولكن الجميع قد فهموا ما يعنيه ، فتطلع الجميع إلى عمر الذى وقف واجمًا لا يُحرك ساكنًا وكأنه تمثال قُد من صخر وقلبه يهوى من صدره إلى قرار سحيق لا نهاية له .....

****

كان خوسيه يحمل حقدًا دفينًا لكل من أندريا وألفونسو وقد دبت الغيرة فى قلبه من تلك المكانة التى تبوأها كل منهما منذ أن جاء بهما الكاردينال دى ميندوزا معه بعد رحلة الصيد التى تعرض فيها لإعتداء قطاع الطرق ...

لذلك ظل خوسيه يتتبع تحركاتهما وسكناتهما أولاً بأول ويتحين لهما ، وهو يتمنى أن يجد منهما سقطة واحدة تجعله يفتك بهما ، وخصوصًا أنه لا أحد يعرف عنهما شيئًا ، حتى الكاردينال نفسه لم يهتم كثيرًا بماضيهما أو التأكد من صحة ما يرويانه ، لذلك كان دائم الشك بهما ، فهم متحفظين أكثر من اللازم ، متدينيين بشدة ، لا يحاولون الإختلاط بباقى الفرسان فى القصر كثيرًا ، ولا يشاركونهم سهراتهم ، لقد كانت حياتهم مثالية أكثر من اللازم .

كان خوسيه طموحًا ، يطمح دائمًا فى تبوء مكانة فى قصر الكاردينال ثم القصر الملكى ، ولكن أقصى طموحاته كانت الحصول على فلوريندا إبنة الكاردينال ، تلك الفاتنة التى سلبت عقله وإستولت على قلبه .

لم يكن أندريا وألفونسو سوى عقبة كبيرة فى طريق طموحه ، فبوجودهما لم يعد لديه أمل فى التقرب من الكاردينال ، الذى أصبح يثق فيهما ويأمن لهما أكثر من باقى حراسه ، فقد كانا يرافقانه كظله ، حتى أمنيته فى التقرب من فلور يندا كان ينازعه فيها أندريا الذى تحاول فلورندا نفسها التقرب منه ، فلم تعد ترى فى القصر سواه .

وكان عليه التخلص من تلك العقبة ....

وبأسرع وقت ممكن ..

لذلك ظل يتحين الفرصة للإيقاع بهما ، ويراقبهم بشكل دائم ، إلى أن لاحت أمامه الفرصة حين لمحهما فى إحدى الليالى وهما يتسللان خلسة خارج معسكر القشتاليين فى مدينة سانتافى ، فتتبعهما بخفة دون أن يشعرا به ، إلى أن وصلا إلى معسكر المسلمين الذى إختفوا بداخله ، فإنسل عائدًا بخفة إلى المعسكر القشتالى ، حتى وصل إلى قصر الكاردينال الذى أسرع إليه ليطلب مقابلته ، وفور رؤيته للكاردينال دى ميندوزا صارحه بشكوكه التى كان يشعر بها منذ أن أتى بهم إلى القصر ، لم يصدق الكاردينال ما يقصه خوسيه مما جعله يهتف فى غضب :

_ أتدرك خطورة ما تتفوه به يا خوسيه ، هل وصلت بك الغيرة والحقد عليهما إلى هذه الدرجة .

_ أنا لا أتجنى عليهما يا صاحب القداسة ، وتستطيع التأكد من صحة حديثى الآن .

وقف الكاردينال مُفكرًا ، فلم يكن يستوعب ما أخبره به خوسيه ، فحديثه يعنى أنه جلب بنفسه جواسيس إلى داخل قصره ، ليس هذا فحسب فهو كان يصطحبهما معه إلى حيث ذهب من إجتماعات وغيره ، ولكن ما كان يؤلمه أكثر هو أنه كان يعتبرهما كأبنائه الذين لم يُرزق بهم ، وما رآه من تعلق فلورينداً بأحدهما ، مما جعله يفكر فى تزوجيهما ، أى عبث هذا الذى كان سيفعله ، هل تعلق بهؤلاء الفتية لهذه الدرجة ، وهل كانوا جواسيس يخدعونه منذ البداية ، أم أنهم خونة باعوه لعدوه ، وكيف سيواجه القصر بما حدث .

شعر دى ميندوزا برأسه يكاد ينفجر من شدة التفكير ، فالأفكار تدور برأسه تكاد تقتله ، والغضب يكاد يعصف به ، مما جعله يهتف وهو يشير إلى خوسيه فى غضب :

_ جهز الرجال على الفور للقبض على هؤلاء الخونة ، أريدك أن تختار أشد رجالك وأكثرهم إخلاصًا ، ولتتكتم الأمر ... فلا أريد أن يعرف أحدًا بهذا الموضوع .

إنطلق خوسيه ليُنفذ ما أمره به دى ميندوزا ، الذى جلس على أحد المقاعد وهو يُ مسك برأسه لا يكاد يُصدق ما حدث ، وكأنه فى كابوس يتمنى أن يفيق منه ، كيف لم ينتبه منذ البداية إلى تلك الخديعة ، كيف إستطاع هؤلاء الفتية خداعه وهو الرجل المُحنك فى السياسة وفى الحرب ، كيف لم يُلاحظ أنهم مختلفين عن الآخرين ، ربما لهذا السبب كانوا الأقرب له ، كيف فكر هؤلاء الفتية فى ذلك ...؟ ، كيف خططوا للأمر بهذه المهارة وذلك الذكاء ..؟، لابد وأن ورائهم قائد جرئ ليفكر فى تلك الفكرة المجنونة ، ففرسان مثل هؤلاء لا يقودهم سوى قائد واحد ، قائد آل على نفسه ألا تسقط غرناطة سوى على جثث فرسانها ...

تلك الفعلة لا يفعلها سواه ..

إنه موسى إبن أبى الغسان ...

****

كانت فلوريندا تستمع إلى حديث أبيها مع خوسيه دون أن يشعرا بوجودها ، فقد شعرت بأمر غريب حينما جاء خوسيه يطلب مقابلة والدها على عجل ، فهى لا تثق أبدًا به ، لذلك وقفت تنصت إلى حديثهما ، وحينما ذهب خوسيه ليُحضر الرجال ، إنطلقت فلوريندا لتمتطى فرسها وتنطلق به فى طريقها إلى خارج مدينة سانتافى فى الطريق المؤدى لمعسكر المسلمين .

لم تفكر فلوريندا لحظة واحدة فى خطورة ما تفعله أو فى غضب أبيها حينما يعرف بالأمر ، كل ما كانت تفكر به هو إنقاذ حبيبها أندريا ، ذلك الفتى الذى أحبته مهما كان إنتماؤه أو هدفه ، فقد شعرت به بقلبها قبل عقلها ، كانت تشعر دائمًا أنه وصاحبه مختلفان تمام الإختلاف ع ن كل من عرفتهممن فرسان قشتالة ، لم تكن تستوعب أبدًا كونهم مجرد فرسان عاديين ، كانت تدرك أنهم من المستحيل أن يكونوا خونة ، فمثلهم أصحاب مبادئ يحيون ويموتون من أجلها ، هم بالتأكيد فرسان مسلمين فعلوا ذلك من أجل وطنهم وأهلهم .

لم تفارق صورة أندريا تفكيرها إلى أن لاحت نيران مُعسكر المسلمين من بعيد ، فأطلقت العنان لفرسها لكى تلحق بهم قبل أن يعودوا للمعسكر القشتالى .

كان أندريا وألفونسو فى طريقهم للعودة إلى مدينة سانتافى حيث معسكر القشتاليين ، بعد أن إلتقوا بالقائد موسى ، وأبلغوه بأخبار القشتاليين وما ينتوى عليه الملكان القشتاليين من مهاجمة قوات المسلمين بكل قواته للضغط عليهم للإنسحاب داخل غرناطة وإجبارهم على تسليم المدينة، لذلك كان عليهم مقابلة القائد موسى بأسرع وقت لإخباره بتلك المعلومات الهامة قبل أن يهلجأوا بالهجوم ، وقد إلتقوا برفاقهم وجمعت بينهم لحظات شعروا خلالها بدفء غرناطة وشوق الأهل والأحبة ، ولكنها إنتهت سريعاً ككل الأوقات الجميلة ، فقد كان عليهم العودة سريعاً قبل أن يكتشف أحدًا إختفائهم ، ولكنهم فى طريق العودة لمحوا أحدهم قادم من ناحية المعسكر القشتالى ، فإمتشقوا سيوفهم وإختبأوا خلف تلك الأشجار التى تقبع فى الطريق بين المعسكرين ، وعندما إقترب القادم تبينوا هويته ، فإذا هى فلوريندا تمتطى حصانها وحيدة فى الطريق المؤدى لمعسكر المسلمين ، مما جعلهم يشعرون بوجود خطب خطير ، فإستوقفاها محاولين تبين الأمر الذى دفعها للإقدام على ذلك .

وما لبثت فلوريندا أن قصت عليهم كل شئ ، وطلبت منهم النجاة بأنفسهم والهروب إلى معسكر المسلمين قبل وصول أبيها وخوسيه ورجالهم ، ولكنها كانت قد تأخرت كثيرًا ، فها هم

رجال أبيها يقودهم الكاردينال بنفسه ومعه خوسيه قد أحاطوا بهم من كل جانب ، ليُفاجأ الكاردينال بوجود إبنته فلوريندا مع هؤلاء الخونة ، مما دفعه ليهتف بها فى غضب :

_ ماذا تفعلين مع هؤلاء الخونة يا فلوريندا .. هل وصلت بكم الحقارة لإختطاف إبنتى لتنقذوا أنفسكم ..؟!!

هتفت فلوريندا فى توسل :

_ لا يا أبى .... لقد جئت إلى هنا بإرادتى ولم يجبرنى أحدهم على شئ ...

تطلع إليها دى ميندوزا وهو يتمتم مصدومًا :

_ إذن فقد جئتِ لتحذيرهم ....

جثت فلوريندا على قدميها أمام أبيها وهى تتوسل إليه باكية :

_ أستحلفك بالرب يا أبتاه ألا تمسهم بسوء ، إتركهم يعودوا من حيث أتوا ، فهم لم يؤذونا فى شئ .

هتف دى ميندوزا مستنكرًا :

_ لم يؤذونا فى شئ ، وبماذا تسمين خيانتهم لنا ومساعدتهم لأعدائنا ، إن لم تكن تلك هى الخيانة فماذا تكون ...؟!!

هتف ألفونسو فى كبرياء قائلاً :

_ نحن لم ولن نكن أبدًا خونة أيها الكاردينال ، وإنما هى الحرب ، والحرب خدعة .

تمتم دى ميندوزا فى حزن قائلاً :

_ أهؤلاء من تطلبين العفو عنهم ، إنهم أعدائنا يا أبنتى .

هتف أندريا بدوره قائلاً:

_ نحن لم نطلب منك عفوًاأو رحمة أيها الكاردينال ، فليس مثلنا من يطلبوها أو يحنوا جباههم لغير الله ، أما أنتم فلستم أهل رحمة ، فها أنتم تعتدون على ما ليس لكم

وتقتلون الأبرياء من أجل أطماعكم وأطماع ملوككم ، كل هذا باسم الدين وهو منكم برئ .

هتف خوسيه في تشفٍ واضح :

- أما زلتم تُكابرون ..؟!!، لقد إنكشف أمركم أخيرًا أيها الخونة وإنتهيتم ، هل كنتم تظنون أنكم ستخدعوننا وتنجون بفعلتكم تلك ..؟!! ، هذا هو تفكير المسلمين المحدود الذى كان السبب فى سقوط مُدنكم فى إيدينا واحدة تلو الأخرى ، والذى سيكون السبب فى هزيمتكم مجددًا وإستيلائنا على آخر مُدنكم لنطهر أسبانيا منكم إلى الأبد.

أشار إليه ألفونسو قائلاً فى إحتقار:

- فلتصمت ولتبتلع لسانك النجس يا هذا قبل أن تتحدث عن المسلمون وفرسانهم ، فلن تبلغ ذرة رمل فى نعل أحدهم .

ضحك خوسيه فى حقد وشماتة :

- كم أشتاق أن أرى كبريائكم هذا وهو يتحطم على أسنة سيوفنا التى سترتوى من دمائكم الآن .

قالها وهو يشير لرجاله لينقضوا على ألفونسو وأندريا ، أو الوليد والحسن ، الذين إستبسلوا فى القتال وأظهروا شجاعة نادرة لم يراها دى ميندوزا فى أعتى فرسان قشتالة ، كان يتعجب من أمرهم .... كيف لهؤلاء الفتية أن يكونوا بتلك الشجاعة وذلك الإقدام ، إنهم يُقبلون على الموت إقبال الحبيب على حبيبه الذى ينتظره ويتعجل قدومه ، مُرحبين ثابتين ثبوت الجبال ، وكأنهم يُسارعون إلى عالم آخر ، يتمتعون بشموخ عجيب حتى وهم فى أحلك اللحظات ، لم يطلبوا عفوًا ولا مغفرة .

ظل الوليد والحسن يُقاتلون ببسالة وقدإمتلأت أجسادهم بالجروح وغرقوا فى الدماء ، ولكنهم لم يضعفوا أو يتراجعوا قيد أنملة ، وفلورياندا تصرخ وتسترحم أباها وخوسيه يُمسك بها فى قوة وهو يهتف :

_ فلتقضوا على هؤلاء الخونة ، إقتلوهم حتى يكونوا عبرة لمن تسول له نفسه أن يتجرأ للوقوف فى وج ه القشتاليين .

أفاق دى ميندوزا على هتاف خوسيه فهتف بدوره وهو يشير له :

_ لا ..... أريدهم أحياء يا خوسيه ... أريدهم أحياء ..

ضاع هتاف دى ميندوزا وسط صليل السيوف ، فقد حمل الفرسان القشتاليين على الفارسين المسلمين الوحيدين ، فتلقى الوليد ضربة قاتلة نفذت إلى صدره لتتوالى بعدها الطعنات عليه ، أما الحسن فما إن شاهد صديقه والدماء تندفع من صدره والقشتاليين يجتمعون عليه وهو يتلو الشهادتين فى صعوبة قبل أن يُسلم الروح ، حتى إشتد غضبه وظل يُقاتل وحده وهو يصرخ بالشهادتين هو الآخر ، حتى تكالب عليه القشتاليين ليتلقى عدة ضربات قاتلة أسقطه أرضًا ليلحق بصديقه وكأن الموت يأبى أن يفرقهم فجمعهم كما جمعتهم الحياة دائمًا ، ولُيسلما الروح التى كتب الله عليها أن تظل حرة أبية حتى آخر لحظاتها فلا ترحل إلا تحت ظلال السيوف كما عاشت تحت ظلالها .

ساد صمت رهيب على المكان إلا من صرخات فلوريندا الهستيرية التى تخلصت من قبضة خوسيه قبل أن تجثو بجوار جثمان الحسن باكية ، لم يقطع الصمت سوى هتاف خوسيه :

_ هيا يا رجال فلنلق بهؤلاء الخونة فى النهر حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

أسرع الرجال لتنفيذ أوامر خوسيه لولا أن دى ميندوزا خرج من صمته وهو يشير بيده قائلاً فى حزن حاول إخفاؤه :

_ لا ... لن نفعل ، سنرسل جثثهم إلى قائدهم حتى يعلم هو ومن معه من نحن ، فلا يتجرأون علينا مرة أخرى ، ولا تنس أن تُشدد على رجالك فلا أريد لمخلوق غيرهم أن يعرف ما دار هنا اليوم .

إزدادت صرخات فلوريندا التى دوت لتجرح قلبه ، فحاول أن يربت على كتفها ويأخذ بيدها لكى تنهض ، ولكنها إبتعدت عنه وهى تصرخ وتبكى وتتشبث بجثمان الحسن أكثر ، وخوسيه يهتف :

_ عذرًايا صاحب القداسة ... ولكننا لا نعرف من هو قائدهم الذى بعث بهم إلينا فى تلك المهمة الخبيثة ...؟

أشار الكاردينال إلى إثنين من رجاله ليحملوا فلوريندا رغمًا عنها وهى تقاومهم فى هيستريا ، وهو يردف قائلاً:

_ ولكنى أعرفه جيدًا ....

قالها وإلتفت لُيلقى نظرة أخيرة على وجوه هذين البطلين التى إمتلأت رضا ، وكأنها تبتسم بعد أن أدت مهمتها على أكمل وجه ، لم يكن دى ميندوزا يريد بإرسال جثثهم إلى قائدهم سوى تكريمهم ، فقد عظم عليه أن يُساء إليهم بعد موتهم ، فبالرغم من أنهم من معسكر العدو حتى أن قائدهم هو ألد أعدائه ، ولكنه طالما إحترم هذا الرجل وقدَّره كثيرًا ، فقد كان الوحيد الذى لم ينحنى لهم أو يلين أو يُهادن ، الوحيد الذى لطالما كان يحسب له ألف حساب ، وها هم فرسانه لا يقلون عنه شيئًا ...

ربما لو كانت غرناطة تمتلئ بأمثال هؤلاء لما إستطاعوا أن يطأوها....

أبدًا....

****

وقف الشيخ عبد الله عند شاطئ النهر الذى يجرى فى ربوع غرناطة وكأنه وريد لا يكف عن ضخ الحياة إليها ، يتطلع إلى حفيده الذى جلس يتطلع إلى النهر وكأنه يبثه أحزانه وآلامه ، فقد كان لا يزال صامتًا وكأنه لا يدرى بما حوله بعد وفاة زوجته فاطمة ، بالرغم من مرور عدة أيام على وفاتها ، كان الشيخ يشعر وكأن نصف قلبه قد ذهب مع فاطمة ، والنصف الآخر يتمزق من أجل عمر الذى تحول إلى جثة خالية من معالم الحياة سوى الحركة ، وبالرغم من محاولات رفاقه للتخفيف عنه ولكنه ظل على حاله لا يُفرق بين ليل ونهار ، حتى أنه لم يعد إلى معسكره من وقتها.

حاول الشيخ أن يتحدث معه فجلس إلى جواره وهو يربت على كتفه قائلاً فى حزن :

- أشعر بحزنك ياولدى ، فقد كنت أعرف مدى حبك لها ، ولكنك تُحزنها بحالك هذا ، لقد رفضت إخبارك بمرضها من أجل أن تُكمل مهمتك، لم تكن تريد لشئ آخر أن يشغلك عن هدفك ، حتى لو كان ذلك الشئ هو مرضها ، فلا تخذلها يا ولدى ...

ترقرقت دمعة حائرة فى عينى عمر ولكنها رفضت أن تغادر عينيه لتتحول إلى غصة ألم حارقة ، وهو يتمتم فى ألم :

- لقد رحلت دون أن تودعنى يا جدى ، قالت لى أنها ستكون فى إنتظارى دائمًا ، ولكنها رحلت وتركتنى لأعيش منتظرًا لقائها ، لقد كانت دائمًا حانية رقيقة ، لماذا أصبحت فجأة قاسية علىّ فإختارت الرحيل فى صمت دون وداع ، دون أن تجعلنى أشاركها آلامها مثلما كانت تشاركنى حياتى كلها بحزنها وفرحها ...؟
- لقد كانت تحبك أكثر من نفسها التى بين جنبيها يا ولدى ، ولكنها أيضاً كانت مؤمنة ، صاحبة عقيدة قوية ومبدأ لا يقبل التنازل ، فما كان لها أن تشغلك عن الجهاد .
- ولكنى أفتقدها يا جدى ولا أدرى كيف لى أن أحيا بدونها .
- ستصبر يا ولدى وستحتسب مثلما فعل رسولنا الكريم عند وفاة زوجته ورفيقة دربه السيدة خديجة ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ، سترمى بأحزانك جان بًا من أجل الهدف الأكبر .... هكذا ربيتك وكذلك علمتك أنت ورفاقك.

صمت الشيخ لبرهة محاولاً السيطرة على أحزانه ، ثم أردف وهو يشير بيده :

- تطلع إلى غرناطة يا ولدى ، ستجدها قد إمتلأت بالأرامل والثكالى ، ستجد الناس وقد كسى الحزن وجوههم ، كلهم يحملون همًا واحدًا فاق كل همومهم وأحزانهم ، أنه هم تلك المدينة الصابرة .

رفع عمر رأسه وهو يتمتم فى حزن :

- ولكن أعدائها قد تداعوا عليها ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .

هتف الشيخ فى يقين:

_ لن ينالوا منها يا ولدى إلا ما قضى الله به ، والله غالب على أمره ، قم إلى جهادك يا عمر ، فرفاقك ينتظرونك وما زالت أمامكم الطريق وعرة ، فإتحدوا وتعاونوا وأطيعوا قائدكم وعاونوه ولا تدعوه وحده ، فإما نصر أو شهادة.

تطلع عمر إلى جده قائلاً:

_ وأتركك وحدك يا جدى ...؟

ربت جده على كتفه فى حنان قائلاً:

_ لست وحدى يا ولدى ...، معى الله ، وأهل غرناطة ، ننتظر عودتكم إلينا بالنصر.

****

الفصل السادس

****

إن الرؤوس التى إنحنت مرة لعدوها ستظل محنية إلى الأبد ، لن يستقيم لها عود مهما حاولت ، ومن يقبل التنازل مرة لن يصعب عليه التنازل مرات ومرات..

لم تمض سوى أيام قلائل حتى زحف ملك قشتالة بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم الأمير أبو عبد الله الصغير وموسى ابن أبى الغسان ، لتنشب بين الفريقين عدة معارك دموية فى فحص غرناطة تخضبت فيها الأرض بالدماء ، كان موسى يقود الفرسان المسلمين ، فى حين كان الأمير يقود فرسان الحرس الملكى ، وكانت المعركة فى البداية سجالاً ولكن مشاة المسلمين كانوا ضعافًا لا يُعتمد عليهم ، فمُزقوا بسرعة وفروا إلى أبواب المدينة يتبعهم فرسان الحرس الملكى وعلى رأسهم الأمير أبو عبد الله ، ولكن موسى حاول أن يجمع شمل ال جند ويحثهم على مواصلة القتال ، فلم يثبت معه سوى فرسانه المخلصين الذى قضى منهم من قضى وأثخن الباقون جراحًا ، فإضطر عندئذ أن يتراجع إلى المدينة ، ليوصد المسلمون أبوابها ويمتنعوا بأسوارها .

إرتد المسلمون خائبون يائسون ، فقد أصبح شبح النهاية ماثلاً أمامهم ، ولم تعد تجدى المقاومة ، فما هو إلا وقت قصير حتى تسقط المدينة فى أيدى القشتاليين ، وتصبح أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ودينهم رهنًا فى يد القدر ، فقد إشتد الحصار وطال على المسلمون وفتك بهم الجوع والحرمان والمرض ، وذهب كل أمل فى النجاة من ذلك المصير المشئوم ، ودب اليأس فى قلوبهم .

وهو ما دفع الأمير أبو عبد الله إلى دعوة الوزراء وكبار القواد والفقهاء والأعيان لإعادة النظر فى الموقف الراهن لغرناطة ، بعد أن إرتد المسلمون إلى المدينة وأمتنعوا بأسوراها وأوصدوا أبوابها ، وقد أضحى السقوط أمرًا حتميًا .

وبعد أن إتخذ الأمير أبو عبد الله الصغير مجلسه فى بهو الحمراء الكبير أو بهو قمارش والذى إجتمع فيه بالقوم بعد أن دعاهم إليه.... وقف أبو القاسم المليح شارحًا الوضع ال ذى وصلت إليه الأمور فى غرناطة فقال :

- تعلمون جميعًا ما آلت إليه الأمور بعد هزيمتنا الأخيرة وإنسحابنا أمام الجيش القشتالى ، ومن قبل ما فعل بنا وبأهلنا الحصار والتجويع ، والمؤن الباقية لم تعد تكفى ، واليأس قد دب إلى قلوب الجند ،وهلك أنجاد الفرسان ، وأصبح من العبث الإستمرار فى دفاع يستنزف قوتنا ، ولم تعد تجدى الكلمات الحماسية ولا الخطب

الرنانة ، وقد بقينا وحدنا ، ليس لنا من حليف يمد لنا يد المساعدة ، ولا نصير نستنصره فينصرنا .

أشار إليه الأمير أبو عبد الله مُردفًا:

- ولقد جمعتكم اليوم للنظر فى الأمر ، فما كان لى أن أتخذ رأيًا قبل أن نتشاور فيما بيننا فننظر ماذا نحن فاعلون .

تنحنح أحد الأعيان قائلاً:

- أيها الأمير .... إن إخواننا المسلمون من عدوة المغرب قد بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن ، وهو يزداد قوة ، ونحن نزداد ضعفًا ، والمدد يأتيه من بلاده ، ونحن لا مدد لنا ، وهذا فصل الشتاء قد دخل ، والمؤن تتناقص وقد قطع العدو الطريق .

وأردف آخر:

- والفرصة الآن ما زالت سانحة أمامنا يا مولاى ، فها هو عدونا ، إن تكلمنا معه الآن قَبِلَ منا وأعطانا ما نطلب منه ، وإن بقينا حتى يدخل فصل الربيع تجتمع علي نا جيوشه ، مع ما يلحقنا نحن من الضعف والقلة ، فلن يعود يقبل منا ما نطلبه منه ، ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ولا على بلدنا منه ، فإنه قد هرب لمحلته من بلدنا أناس كثيرون يدلونه على عورتنا ويستعين بهم علينا .

أشار الوزير يوسف ابن كماشة قائلاً:

- لقد بات من المستحيل الإستمرار فى المقاومة أو الصمود أمام هذا الطوفان ، ولم يعد أمامنا خيار آخر سوى مُهادنة الملوك الكاثوليك ، والحصول على أفضل ضمانات من أجل أهل غرناطة .

هب موسى واقفًا وهو يهتف فى غضب :

- هل ترضخون بتلك السهولة ، ألم يعد فيكم رجل رشيد يأبى أن ينحنى ، إذا كنتم أنتم يا كبار غرناطة وصفوتها تسعون إلى الإستسلام والتسليم ، وقد خارت قوتكم

وضعفت عزائمكم وتشتكون سوء الأحوال وتردى الأوضاع ، فما بال البسطاء من أهلها ، وأين ذهبت تضحيات فرسانها الذين قضوا نحبهم على أسوارها دفاعًا عنها ، كيف تُرخصون دمائهم ، هل هانت عليكم غرناطة أم هانت عليكم أنفسكم قبلها...؟!!!

أحنى الجميع رؤسهم ، فمنهم من كان يشعر بالضعف والخزى ، يشعر بأنه يخذل غرناطة وأهلها ، ولكنه يؤمن فى الوقت نفسه أنه لم يعد هناك مفر من المُهادنة ، ومنهم من كان يخشى على مصالحه وأمواله ، ومنهم من يريد الفرار بنفسه وأهله وماله إلى المغرب فلم يعد له مكان فى غرناطة بعد أن تستسلم وتخضع للملوك الأسبان ، فصمت الجميع خجلاً مما قاله موسى .

أما الأمير فقد شعر بالخزى وهو يحاول أن يتفادى نظرات موسى التى شعر وكأنها تخترقه ، وكأنه يُدرك حقيقة إتفاقه هو ووزيريه على تسليم غرناطة من قبل ، وأن ذلك الإجتماع لم يكن سوى محاولة لتفادى غضب العامة ليطلبوا هم منه التسليم ، ولكن الوزير أبو القاسم قام هاتفًا :

- أنت لست أكثر منا حبًا وإخلاصًا لغرناطة يا موسى ، ولكننا لسنا فى زمن المعجزات ، فلم تعد غرناطة وأهلها قادرين على إحتمال الحصار أكثر، والأمر الآن يستوجب التفكير بالعقل فلا مجال للمشاعر هنا ، يجب أن تُسلم بالأمر الواقع ، لقد إنتهى الأمر.

هتف موسى وهو ينتفض غضبًا ، وصوته يكاد يهز أركان القاعة :

- عن أى أمر واقع تتحدث يا أبا القاسم ...؟!! ، لا يوجد على وجه الأرض مبرر واحد يبرر تخاذلكم وضعفكم وركونكم إلى أعدائكم ، وإيثاركم الحياة الدنيا عن سبيل الجهاد ، نحن لسنا قلة ولسنا ضعفاء ، فلم يُنصر المسلمين من قبل عن كثرة ولم ينهزموا عن قلة ، وإنما هو ضعف النفوس التى أَلِفَت الرغد من العيش .

حاول الوزير ابن كماشة أن يُهدئ الموقف وأن يستوعب غضب موسى فتنحنح قائلاً:

- إن إجتماعنا اليوم يا موسى لم يكن من أجلنا ، وإنما من أجل غرناطة وأهلها ، صحيح أنك فارس يشهد لك القاصى والدانى ، ولذلك فأنت تنظر للأمور وكأنك داخل ميدان المعركة لا ترى سوى النصر أو الموت ، ولكننا هنا جميعًا لنقرر أمر يتوقف عليه حياة شعب ومصيره ، وليس لنا أن نُغامر بأرواح الناس ومصائرهم ، ففيهم النساء التى ثكلت بفقدها أبنائها وأزواجها ، والشيوخ الذين لا يقوون على طعن ولا قتال، والأطفال الذين يواجهون شبح الموت جوعًا ، والشباب الذين ذاقوا ويلات الحرب وجرت دمائهم على أرض معركة كُتب عليها أن تكون خاسرة ، فالحف اظ على أرواح هؤلاء جميعًا هو أمانة فى أعناقنا ، وهو رهن لما سنقرره اليوم.

تطلع إليه موسى وهو لا يكاد يُصدق ، هم بالفعل قد أخذوا قرارهم وإنتهى الأمر ، لقد أجمعوا أمرهم على الإستسلام والمُهادنة ، ولكنه حاول أن يُحيى داخلهم روح بات يُدرك أنها ماتت منذ زمن ، فحاول أن يُخاطب فيهم قلوبهم التى قست على غرناطة فهانت عليها ، فهتف قائلاً:

- وهل إنقاذ غرناطة لا يكون إلا بتسليمها للملوك الكاثوليك ..؟!! ، وهل تنجون بأهلها من مواجهة قد يتغير فيها مصيرهم إلى إستسلام يخضعون فيه ، فيكونون سجناء فى أرضهم ..؟ ، وهل كان مصير المدن التى وقعت فى أيدى القشتاليين من قبل أفضل مما تنتظره غرناطة ..؟، هل ما زالت مآذنها تصدح بالآذان كما كانت ...؟، هل أَمِنَ أهلها على دينهم وأرواحهم وحُرماتهم وأموالهم ..؟!! ، مالكم كيف تحكمون..؟!! ، أى مصيرٍ ذلك الذى تذهبون بغرناطة إليه ..؟!!

ساد صمت رهيب على القاعة وكأنها قد خلت من معالم الحياة ، وحاول الحضور الحديث ، ولكن لم يجرؤ أحد ، فقد ألجمتهم كلمات موسى ووضعتهم وجهًا لوجه أمام تلك الحقيقة التى يهربون منها ، حقيقة ضعفهم وخنوعهم وإستسلامهم ، لم يقطع ذلك الصمت سوى صوت الأمير أبو عبد الله وهو يرفع رأسه ببطء قائلاً:

- لقد فات الوقت يا موسى .. فأنت تعلم أنه لم يعد لدينا قوة كافية لمواجهة القشتاليين ، ومواردنا تنفد ، ولم يعد أمامنا الكثير من الوقت لنُقرر.

شعر موسى بالأسى والحزن يعتصر قلبه وهو يهتف فى غضب :

- إن مواردنا لم تنضب بعد فما زال لنا مورد هائل للقوة ، كثيرًا ما أدى إلى المعجزات ، إنه إيماننا ، فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح في يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر رمق ، وإنه لخيرٌ لي أن أُحْصَى بين الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة من أن أُحْصَى بين الذين شَهِدُوا تسليمها .

أردف الأمير فى حزن قائلاً:

- لم يعد أمامنا سوى النزول على رأى الشعب يا موسى ، والشعب يريدون المُهادنة ، وهذا هو سبب إجتماعنا اليوم ، أدرك أن الأمر صعب عليك ، وهو صعب علينا مثلك، ولكن واجبنا أن نُقرر ما فيه المصلحة لأهل غرناطة وما يتفق مع إرادتهم .

أدرك موسى أن كلماته قد ذهبت أدراج الرياح ، فقد كان يُخاطب نفوسًا بلغ بها اليأس مبلغه ، وهان عليها الدين والوطن فآثروا الخنوع والإستسلام ، فتركهم يقررون مصيرهم ومصير غرناطة ، فقد آثر ألا يكون بينهم وهم يفعلون ، وغادر القصر وقد إمتلأ قلبه حزنًا وحسرة .

أما هم فلم يطل بينهم النقاش ، فقد أجمعوا أمرهم وعقدوا العزم على المُهادنة ، وإجتمعوا على طلب الهدنة من القشتاليين وبدء المفاوضة معهم فى أمر التسليم ، والأمير أبو عبد الله يوافقهم الرأى قائلاً:

- أنظروا ما يظهر لكم ، وما تتفقون عليه من الرأى الذى فيه صلاحكم .

تطلع القوم إلى بعضهم البعض ،وقد إستقروا على تفويض الوزير أبو القاسم بن عبد الملك المليح ، والوزير يوسف بن كماشة ، فى الإتفاق على شروط التسليم وبنوده مع الجانب االقشتالى ، ووافقهم على ذلك الأمير ليُوفِد الوزيرين إلى ملوك قشتالة وهو يشعر أنه سيحمل عبء ذلك القرار ليس فقط أمام نفسه وأمام الناس ..

وإنما أيضاً أمام التاريخ الذى لن يرحمه.....

****

غادر موسى قصر الحمراء وهو يسير وحيدًا على قدميه ، كان يتطلع إلى المدينة ودروبها وطرقاتها وكأنه يودعها ، كان ينظر فى وجوه الناس ، كيف سمحوا لهؤلاء المتخاذلين أن يتفقوا

على تسليم غرناطة ...؟!! ، تذكر رفاقه وفرسانه كيف ضحوا بكل شئ من أجلها ، كيف إرتوت أرضها من دمائهم التى سالت ذكية لتحاكى أنهار غرناطة طُهرًا ونقاءًا ، كيف سيواجه فرسانه ..؟ ، كيف سينظر فى وجوههم ليُخبرهم بالأمر ..؟ ، بماذا سيجيبهم إن هم سألوه ، هل ستسلمون غرناطة بعد كل هذه التضحيات ...؟!! ، هل ضاع كل ذلك سدى وضاعت معه غرناطة ..؟!!

رفع رأسه لينظر إلى المآذن ، لم يكن يُصدق أن تلك المآذن ستصمت ذات يوم بعد أن كانت تصدح بالنداء لتدق الأجراس بدلاً منها ، هل ستُحرم مساجدها يوماً من قرآن يُتلى آناء الليل وأطراف النهار لتُسمع فيها أصوات التراتيل ، كيف يأملون أن يُبقى عليها القشتاليون وأفعالهم شاهدة عليهم فى كل مدينة دخلوها ، كيف سيصدقون وعودهم وعهودهم ، كيف يأمنوهم على غرناطة ...؟!!

قادته قدماه إلى خيمة الشيخ عبد الله الغرناطى فى معسكر المسلمين الذى لَزِمه بعد إستشهاد أربعة آخرون من خيرة الفرسان التسعة الذين درّبهم بنفسه منذ نعومة أظافرهم فى تلك المعارك الأخيرة ، كان من بينهم حفيده عمر ، والذين لحقوا بالحسن والوليد الذين قتلهم ذلك اللئلردينال بعد أن كشف أمرهم ، لُيصبح الرجل وحيدًا بعد رحيل حفيديه .

كان يعرف الشيخ جيدًا فقد كان من خيرة الفرسان المسلمين ، وأكثرهم صمودًا وعنادًا وإصرارًا ، تعلم على يديه الكثير ، وبالرغم من تعرضه لخطوب جلل فى حياته ، إلا أنه ظل صامدًا مؤمنًا مُحتسبًا ، يبث الحماس فى قلوب الرجال فى الوقت الذى ينزف فيه قلبه ، فكر موسى لو كان فى القصر رجال مثل الشيخ لما سُلّمت غرناطة قط ، ولكن للأسف فمصير غرناطة كان يحدده الآن مجموعة من أصحاب المصالح والمنتفعين والخانعين الذين يخشون على أنفسهم وأموالهم.

دلف موسى إلى الخيمة ليجد الشيخ جالسًا بين عبد الرحمن ويوسف وزياد فرسانه الثلاثة الذين تبقوا بعد رحيل إخوانهم ، يحمسهم ويشد من أزرهم ، فاستأذن من الشيخ لينضم إليهم ، ولم يكد يمر بعض الوقت حتى سمح الشيخ للشباب بالإنصراف إلى خيمتهم ، فقد لاحظ أن موسى حزينًا مهمومًا ، مما جعله يربت على كتفه فى هدوء قائلاً:

- إنهم يصرون على التسليم أليس كذلك ..؟!!

تطلع إليه موسى فى دهشة قائلاً :

- وكيف علمت بالأمر ...؟!! ، فقد تركت مجلسهم منذ قليل قبل أن ينتهى الإجتماع الذى دعا إليه الأمير أبو عبد الله .

هز الشيخ رأسه فى هدوء عجيب أدهش موسى قائلاً:

- لست بحاجة لحضور الإجتماع لمعرفة ما سينتهى إليه رجال مثلهم يا موسى .

أطرق موسى حزينًا وهو يتمتم فى حزن :

- إنهم يريدون مهادنة النصارى يا شيخ ، سيرسلون من يتفاوض معهم من أجل التسليم .

أردف الشيخ قائلاً:

- ليست المرة الأولى التى يهادنون فيها عدوهم ، فقد هادنوه من قبل وقبلوا بالخضوع له ، وها هو اليوم يطالبهم بالتسليم .

تنهد موسى فى ألم قائلاً :

- ولكن الثمن هذه المرة سيكون غرناطة يا شيخنا .

أغمض الشيخ عينيه فى قوة محاولاً السيطرة على حزنه وغضبه قائلاً:

- إن الرؤوس التى إنحنت مرة لعدوها ستظل محنية إلى الأبد يا موسى ، لن يستقيم لها عود مهما حاولت ، ومن يقبل التنازل مرة لن يصعب عليه التنازل مرات ومرات يا ولدى ، وهم قد تنازلوا من قبل وإنحنوا لعدوهم من أجل حرية أميرهم ، فماذا كنت تنتظر من أمثالهم.

تمتم موسى :

- سَيُسلمون غرناطة ويتركونها لمصيرها ، يتذرعون بمصلحة الناس وخوفهم على حياتهم بعد أن عانوا ويلات الحصار والحرب .

أومأ الشيخ برأسه قائلاً:

- هؤلاء الذين يتحدثون عن معاناة البسطاء ومصلحة الشعب هم أول من يقفزون من السفينة يا ولدى ، بعد أن يُؤَمِنوا لأنفسهم قوارب توصلهم للشاطئ الآخر فى أمان ، لا يهمهم سوى أن تمتلئ قواربهم بكل مكسب ومغنم ، تاركين خلفهم صرخات الغرقى ونحيب الثكالى وآلام الجائعين .

هتف موسى فى غضب :

- لقد حاولت يا شيخ ، بذلت كل ما أستطيع حتى يفهمون ويتراجعون ، ولكنى وحدى ، لا أحد يسمعنى .
- لو عَلِمَ الله فيهم خيرًا لأسمعهم ، ولكن لا خير فيهم ،أما أنت فلست وحدك يا موسى ، لم يزل معك الصادقون ، ربما تكون غريبًا ولكن هذا حال كل من يصدح بالحق ، هكذا عشنا وهكذا سنموت ....غرباء .

كان كلاهما يعلم أن مسألة تسليم غرناطة ما هى إلا مسألة وقت ، ولن يلبث إلا أن تُفتح الأبواب وتدق الأجراس مُعلنة سقوط غرناطة آخر حواضر المسلمون فى الأندلس ، ولكنهما برغم كل شئ وبالرغم مما يحيط بهما من يأس وقهر ، إلا أنه كان يجمعهما شئ أقوى ...

فقد كان كليهما يحمل قلب مؤمن وعزيمة تنحنى لها الجبال ...

ونفس تأبى الإستسلام أو الخضوع ...

****

إستمرت المفاوضات عدة أسابيع بين الوزيرين أبو القاسم المليح ويوسف بن كماشة الذين ندبهما الأمير أبو عبد الله الصغير ، وبين الجانب القشتالى الذى فوض كل من الكونت هيرناندو دى ثافرا أمين سر الملك والقائد غونزالو فرناندیز دى كوردوبا ، والتى جرت بسرية وتكتم شديدين تارة فى غرناطة وتارة فى قرية جرليانة بالقرب من مدينة سانت افى ، حتى أوشك الطرفان على وضع الخطوط النهائية لإتفاقية التسليم ، وقد إجتمع الملكان القشتاليين برجالهم لبحث ما توصل إليه المفاوضون مع الطرف الغرناطى .

هتف الملك فرناندو :

- لن نستطيع الوثوق بالشعب الغرناطى ، فقد ينقلبون علينا وتثور حميتهم حين التسليم فيجنحون للمقاومة أو الغدر بنا .

أومأ الكاردينال دى ميندوزا برأسه قائلاً :

- مولاى مُحق فى ذلك ، فلا يمكن الوثوق بذلك الأمير ووزرائه أبدًا ، فمن يُسلم مدينته لينجو بنفسه لا يُؤْمَن من الغدر ، كما أننى لا أرتاح أبدًا لهذين الوزيرين الخانعين ، فما يهمهم هو ضمان النجاة لأنفسهم ولأميرهم ، بالإضافة إلى أن نار المقاومة لم تخمد تمامًا فىغرناطة ، فما زال موسى بن أبى الغسان يجمع حوله بعض الفرسان وغيرهم ممن يرفض التسليم ويعتبره خيانة لغرناطة.

تنحنح الكونت دى ثافرا قائلاً:

- أتفهم مخاوفكم جيدًا ، فنحن أيضًا لم نثق فى هذين الوزيرين كامل الثقة ولكنهم يؤمنون تمامًا بالتسليم والخضوع لنا ، فهم لا يريدون تحمل أعباء المقاومة ، كما أننى أعرفهم جيدًا فقد سبق التفاوض معهم حين كان أميرهم أسيرًا فى أيدينا ووقعنا تلك المعاهدة حينها ، وقد كتبا إلى مولاى ومولاتى خطابًا يؤكدان فيه إخلاصهما وولائهما وإستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهما كاملة .

أردف القائد دى كوردوبا :

- وهو ما جعلنا نطالبهم عند تسليم قلاع الحمراء والحصن وأبوابها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين بضمان لسلامةالتسليم ، فقد إشترطنا أن يقدم الأمير الصغير والقادة إلى جلالتكم قبل تسليم الحمراء بيوم واحد خمسمائة شخص بصحبة الوزير ابن كماشة من أبناء وإخوة زعما ء غرناطة والبيازين ومعهم ولد أميرهم نفسه ، ليكونوا رهائن فى أيدينا لمدة عشر أيام ، حتى يستقر بنا المقام فى الحمراء ، وفى نهاية هذا الأجل يُرد أولئك الرهائن أحرارًا .

هتف فرناندو فى قلق :

- ولكن ما يقلقنى هو إصرار الجانب الغرناطى على جعل تلك المفاوضات شديدة السرية ، بالرغم من أن أهل غرناطة قد فوضوه فى طلب التسليم والمُهادنة .

أردف دى ثافرا قائلاً:

- لقد عللوا ذلك يا مولاى برغبتهم فى تحقيق المفاوضات للغاية المرجوة منها ، وذلك خشية من إنتفاض الشعب الغرناطى ونزعاته ، كما أنهم أصروا على إبرام معاهدة أخرى تضمن الحقوق والإمتيازات والمنح التى تُعطى للأميرأبو عبد الله الصغير ولأفراد أسرته وحاشيته ، وذلك متى نفذ تعهداته التى تضمنها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء وحصونها .

تأففت الملكة إيزابيلا فى ضيق قائلة :

- ولكنى لا أرى سببًا للتأخير موعد التسليم ، ما دمتم قد إتفقتم على كل شئ .

أشار الكونت دى ثافرا قائلاً :

- لقد كنا نود ذلك يا مولاتى ، ولكن الأمور فى غرناطة غير مستقرة ، ويجب أن نتخذ إحتياطاتنا من أجل سلامة جلالتكم وسلامة جنودنا ، وهو ما إتفق عليه معنا الجانب الغرناطى .

أردفت إيزابيلا وقد ظهر عليها عدم الرضا :

- لكنى كنت أتمنى أن نحتفل مع جنودنا بأعياد الميلاد داخل أسوار غرناطة وأن تدق أجراس الميلاد فوق أبراج الحمراء ، وتردد أرجاء القصر صوت التراتيل .

وافقها الكاردينال دى ميندوزا بإيماءة من رأسه ، ولكنه تمتم قائلاً :

- جميعنا يود ذلك يا مولاتى ، ولكن طالما أن الظروف إقتضت تأخير ميعاد التسليم ، فلنجعل يوم دخولنا إلى غرناطة عيد ثان تُقرع فيه الأجراس ويعلو فيه صوت التراتيل .

تنحنح الأسقف دي سيسنيروس والذى ظل صامتًا طوال الإجتماع ليتمتم فى هدوء :

- ولكنى أرى أنكم قد أعطيتموهم الكثير من الضمانات وسمحتم لهم بوضع الكثير من الشروط التى تُبقى على الإسلام قائمًا كأمر واقع فى غرناطة ، مما يُعارض الهدف الأسمى من هذه الحرب المقدسة ، وهو نشر الكاثوليكية وتطهير أراضى أسبانيا من هؤلاء المسلمون.

كان مشهورًا عن الأسقف سيسنيروس تعصبه الشديد مثل الملكة إيزابيلا ، وهو ما جعله من المقربين منها والمؤثرين عليها ، وكان الجميع يدرك ذلك ، مما دعا الكونت دى ثافرا إلى محاولة إقناعه قائلاً :

- قد يقبل الغرناطيون تسليم مدينتهم الآن يا صاحب القداسة ، ولكن إستفزاز مشاعرهم الدينية فى هذا التوقيت هو أمر بالغ الخطورة ، وهو ما لن يرضوا به وسيؤدى حتمًا إلى فشل المفاوضات ، وقد يستغل بعض القادة المسلمين الرافضين للمهادنة ذلك لشحن النفوس وإذكاء الهمم ، مما قد يتسبب فى خوضنا لمعارك أخرى وإرهاق جيوشنا مجددًا ، وربما تكون فى هذه المرة أكثر شراسة من سابقتها ، وهو ما نحن فى غنى عنه الآن ، على الأقل فى تلك المرحلة .

قهقه فرناندو فى شدة وهو يشير إلى الأسقف المتشدد قائلاً:

- الحرب خدعة يا صاحب القداسة ، والسياسة تقتضينا التعامل مع الوضع الراهن بذكاء حتى نصل إلى مُبتغانا ، وحينما نصل إلى هناك .... إلى الحمراء وتستقر بنا الأمور سوف أُطلق أيديكم أنتم أصحاب القداسة لتفعلوا بها ما ترون من أجل تحقيق الهدف المقدس الذى طالما حلمنا به وسعينا إليه .

أومأت إيزابيلا فى رضا وهى تتطلع إلى الأسقف سيسنيروس الذى تمتم قائلاً:

- كما ترى يا صاحب الجلالة ، فأنا أثق فى ولائك أنت ومولاتى للرب ولرسالته السماوية ، وأعرف أنكم تبذلون قصارى جهدكم من أجل خدمة المسيحية .

أما الكاردينال دى ميندوزا فبالرغم من سعادته بقرب تحقق الحلم وسقوط غرناطة ، إلا أن قلبه كان يتمزق من أجل إبنته فلوريندا التى لا زالت فى حالة صدمة ، ذابلة حزينة ، ترفض إقترابه منها وكأنها قد كرهته ، كم يكره هؤلاء المسلمون ..؟، فهم السبب فيما وصلت إليه

إبنته ، لذلك كان يتوق لذلك اليوم الذى تخضع فيه غرناطة ويدخلونها ، كان يتمنى أن يرى وقتها وجه موسى ابن أبى الغسان ، وقد علا بذل الهزيمة والإنكسار حين ينكسر كبرياؤه ويُسلمهم بنفسه مدينته التى لطالما دافع عنها ،لذلك أردف دى ميندوزا قائلاً :

- أخيرًا ستخضع غرناطة لتكون إحدى الممالك المسيحية ، لَكَم أتوق إلى ذلك اليوم الذى يعلو فيه الصليب فوق بروج الحمراء ، لُيعلن نجاحنا فى هذه المهمة المقدسة .

تطلعت إليه إيزابيلا فى جزل قائلة :

- لن تنتهى مهمتنا المقدسة بتسليمنا غرناطة يا صاحب القداسة ، وإنما ستبدأ

****

جلس الشيخ عبد الله الغرناطى أمام خيمته وقد أمسك بقلمه وبجانبه مداده ليخط تلك الكلمات التى إعتاد أن يدونها على ضوء تلك النيران المشتعلة ، فقد كان القلم وتلك الصفحات المعدودة هما رفقاء دربه الذين لا يتركونه أبدًا منذ أن وعى .....

(اليوم أجد نفسى وقد شارفت على نهاية عمرى الذى إمتد طويلاً ، عمر طويل قضيته فى الجهاد من أجل رفعة هذا الدين وعلو شأنه فى تلك الأرض ، تلك الأرض التى إحتضنته فَعَلا شأنها به وأصبحت محط أنظار الدنيا بعد أن كانت تضج بالظلم والاستبداد والتخلف ، تلك الأرض التى عاش أهلها فى الإسلام تحت ظلال الحرية والعلم بعد أن كانت مُكبلة بأغلال العبودية ترزح في عتمة الظلمات وتحت نِيرُ الجهل .....

اليوم أجدهم يسلمونها بأيديهم ... يطفئون بتخاذلهم وخنوعهم تلك الشعلة التى ظلت تضئ للدنيا قرابة الثمانية قرون ... ينتظرون النُصرة من عدو لا يأمل بشئ سوى أن ينطفئ ذلك النور وتخبو تلك الشعلة إلى الأبد ... ونسوا أن الله مُتم نوره ولو كرهوا ...

أدرك اليوم أن غرناطة تغرق بأيدى هؤلاء وأمثالهم ولكن ما تركته غرناطة وغيرها لن يموت ، فلو قدر الله لها أن تسقط فسوف تكون عبرة ودرس قاسى لأمتنا ، تلك الأمة التى سيطرت عليها الأطماع والمصالح ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وهادنوا عدوهم فزادهم الله ذلاً بعد ذل ، وقعدوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الدنيا فتاهوا وإنتكثوا وسقطوا من بعد علو ورفعة .

كنا خير أمة أُخرجت للناس ، حملنا دعوة الحق ونور التوحيد ففتحنا القلوب قبل المدن ، وأخرجنا الناس بدعوتنا من التيه والتشتت لطريق الحق الذى لا يحيد ، فعلا شأننا وهابنا أعدائنا وأخضر الزرع وأينع الفكر وشيدت الدور والقصور ، ولكن الدنيا غرتنا بمظهرها الخادع فلقبلنا على التعصب والتشاحن والخلود إلى الجاه والسلطان والتنافس عليه، وها هى سنة الله عز وجل فى خلقه تجرى فينا فكان الإستبدال" وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ".

لقد عشت كثيرًا لأرى ممالك تتهاوى وعروش تزول وشعوب تتشرد فى مشارق الأرض ومغاربها ، رأيت إناسًا تمسكوا بدينهم فقضوا دونه ، وإناسًا باعوا دينهم وأشتروا دنياهم ، وإناسًا ضعفوا فتخلوا عن دينهم وأعتنقوا غيره طلبًا للأمان ، رأيت شعوبًا أبية لا ترضى بالذل ولا الهوان فعاشوا وماتوا كرامًا ، ورأيت أخرى خانعة لا يهمها سوى قوت يومها حتى ولو كان مُدنسًا بالذل والعار فعاشوا وماتوا عبيدًا أذلاء ..

عشت كثيرًا لأرى أبنائى وأحفادى وهم يقضون نحبهم من أجل نصرة هذا الدين ، ووالله لو أن لى من الأبناء والأحفاد مائة ما ترددت فى أن أهبهم جميعًا لطريق الحق ، ولو أن لى مائة نفس ما ترددت فى التضحية بها واحدة تلو الأخرى ..

ولكنى لم أتخيل يومًا أن أحيا لأرى غرناطة وقد فُتحت أبوابها على مصراعيها لتستقبل جيوش أعدائها ، و أرضها وهى تُدنس بأقدامهم يسيحون فيها أينما يشاؤون ووقتما يريدون ، ومآذن غرناطة وهى تُحرم من الآذان ليعلو منها صوت الأجراس ، وفرسانها وهم يُغمدون سيوفهم ويطأطأون رؤسهم ....

ولكنى قد عاهدت الله أننى لن أفعل ، لن يدخلوها وفى صدرى نفس يتردد ، لن أقبل بذل أو أحنى رأسًا لم تنحن إلا لخالقها ، لن أخون دم أبنائى وفتيانى ...

أبدًا.....)

وعندما إنتهى الشيخ ترك قلمه ومد يده ليتحسس سيفه وقد شرد وهو يتطلع إلى الأمام...

إلى أسوار غرناطة....

****

حل المساء باردًا كئيبًا فى ذلك اليوم من أيام غرناطة ، وقد أدى المسلمون صلاة العشاء ليأووا بعدها إلى منازلهم وهم لايدرون شيئًا عما يدور فى تلك اللحظة هناك حيث قصر الحمراء ، فى بهو الحمراء الكبير ، حيث إجتمع الزعماء والوزراء والقادة بالأمير أبو عبد الله الص غير ليوقعوا على إتفاقية التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب وعلى شعبهم بالخضوع ، وليشيعوا بأيديهم آخر حاضرة من حواضر الأندلس وآخر معقل للإسلام فى الأندلس .

كان الجميع يجلس واجمًا حزينًا وقد خجلوا حتى من التطلع فى وجوه بعضهم البعض ، وقد جلس الأمير أبو عبد الله الصغير ببينهم حزينًا كسيرًا مطأطئ الرأس ، لا يدرى كيف يبدأ ومن أين يبدأ فقد كان يدرك أن ما فعلوه ويفعلوه هو عار سيظل يلحق بهم أبد الدهر ....

حاول الأمير التحدث ولكنه شعر أن الكلمات تخونه فتموت على شفاهه قبل أن ينطق بها ، ولكنه حاول أن يستجمع قواه ويلملم شتات نفسه حين هتف فى صوت مبحوح:

- لقد إنتهت مفاوضاتنا مع الجانب القشتالى كما أردتم ، وقد عرض الوزير أبو القاسم عليكم بنود المعاهدة ، ولم يتبقى سوى أن توقعوا عليها فأنتم زعماء غرناطة وكبرائها ، لتبدأ التجهيزات لتسليم غرناطة والحمراء .

أشار الوزير ابن كماشة قائلاً:

- أنتم تعلمون جيدًا الظروف التى أدت إلى توقيع تلك المعاهدة ، وقد إجتمعنا بناء على قراركم بتفويضنا بمفاوضين من الجانب القشتالى ، وناقشنا بنود المعاهدة بالتفصيل قبل أن نعرضها عليكم ، وبذلنا غاية جهدنا لنستخلص هذه الحقوق لشعب غرناطة ، ولننقذ ما يمكن إنقاذه ، فقد إستخلصنا حقوق ووضعنا بنود لم تكن لها أن تكون إذا إستمرت الحرب وإقتحمت جيوش القشتاليين ساحات غرناطة.

أشار أحد زعماء غرناطة قائلاً :

- لقد أطلعنا الوزير أبو القاسم على بنود المعاهدة ، وكما رأينا فقد حاولتم الحصول على أفضل الشروط من أجل مصلحة غرناطة وأهلها ، ومن أجل الحفاظ على دينها وهويتها .

قاطعه صوت قوى إنبعث عند مدخل البهو إهتزت له أركانه قائلاً:

_ تقصد الحصول على أفضل شروط للإستسلام والرضوخ ، من أجل معاناة غرناطة وأهلها التى ستبدأ حقًا لو وقعتم على تلك المعاهدة .

إرتبك الأمير أبو عبد الله وهو يتطلع إلى موسى فى ضعف قائلاً :

_ لقد تحدثنا فى هذا الأمر يا موسى وإنتهى الأمر ، ولم يعد أمامنا سوى توقيع تلك المعاهدة ، فلم يعد لدينا خيارات أخرى .

هتف موسى فى غضب قائلاً :

_ لو أردتم لوجدتم الكثير من الخيارات الأخرى ، ولكنكم رضختم لملوك قشتالة وفضلتم السلامة عن الجهاد .

تنحنح ابن كماشة فى حرج قائلاً :

_ لقد بذلنا قصارى جهدنا من أجل الحفاظ على مقدساتنا وحرماتنا ، وحريتنا فى أداء شعائرنا ، والمحافظة على تعاليم ديننا ، وممارسة حياتنا بشكل طبيعى داخل غرناطة دون أن يتعرض القشتاليين لنا أو لحرماتنا فى شئ .

هتف موسى مستنكرًا :

_ أية حرية تلك التى تتحدث عنها يا ابن كماشة ..؟!!! ، كيف تقنع نفسك أن هؤلاء القشتاليين سوف يتركون نيرانًا تحت الرماد قد تشتعل يومًا فتحرقهم ، لن يدع هؤلاء مقدسات أو حرمات لأهل غرناطة ، سوف يعدون غرناطة لتكون إحدى حواضرهم فلا يعلو فيها صوت لآذان أو ذِكر ، لن يتركوا الناس وشأنهم فى ممارسة عقائدهم فهم يرون فى هذا خطورة عليهم وعلى مُلكهم ، أنتم توهمون أنفسكم وغيركم فحسب .

أشار الوزير أبو القاسم محاولاً تهدئة موسى خوفًا من رد فعله وقدرته على إثارة الناس فى هذا الوقت الحرج قائلاً :

_ أنت تتحدث عن معاهدة يا موسى ، إنها معاهدة مُلزمة لطرفيها ، لن ينقضها القشتاليين طالما لم ننقضها نحن .

هتف موسى فى غضب :

- ومنذ متى يفى ملكهم فرناندو بعهوده وهو من إشتهر بنكوثه عن عهوده ، ومخالفته كل ما التزم به وأقسم بشرفه عليه ..؟، حتى مليكتهم إيزابيلا تلك التى تتمتع بنزعة دينية متطرفة إلى حد الهوس، أسيرة لتنظيرات الأحبار والقساوسة الكارهين للإسلام والمسلمين، تحلم بإنهاء الوج ود الإسلامي في غرناطة، آخر حصن للمسلمين في إسبانيا ،أنتم تبررون تخاذلكم لا أكثر...

قالها وهتافه يعلو ويشتد مما أوقع الرهبة فى قلوب الحاضرين الواجفة وهو يُردف قائلاً :

- أفيقوا يرحمكم الله ، أفيقوا قبل أن تفعلوا ما تندمون عليه ، قبل أن تُسقطون آخر معاقل عزكم ومجدكم ، قبل أن تنهوا بأيديكم ما بدأه المسلمون فى أرض الأندلس منذ ما يقارب الثمانية قرون ، وما بذلوه من دماء وتضحيات من أجلها ومن أجل إنتشار الإسلام وعلو شأنه فيها ، لا تفعلوا بأيديكم ما لم يستطع عدوكم فعله ، إتقوا الله فى غرناطة وأهلها .

بكى الحضور وإشتد بكائهم وكلمات موسى تنغرس فى قلوبهم كخناجر لا تعرف للرحمة سبيلاً ، لتطعن بها آخر ما تبقى من عزة وإباء ، فهتف موسى محاولاً إستنهاض هممهم وإيقاظ ضمائرهم فى محاولة أخيرة منه :

- إبتكوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخلق لإرسال الدمع ، ولكن لتُقْطِر الدماء ، وإنى أرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا إنقاذ غرناطة ، ولكن ثمة بديل للنفوس النبيلة ، ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعًا عن حرياتنا وإنتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبنائها أحرارًا من أغلال العبودية ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماءًا تغطيه ، وحاشا لله أن يُقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها ....

صمت موسى وقد ساد المجلس سكون الموت ، وما زالت دموع الحاضرين تنهمر ، فأجال بصره فيمن حوله ، فإذا باليأس ماثل فى تلك الوجوه التى أضناها الألم ، وإذا كل عزم قد غاض فى

تلك القلوب الكسيرة الدامية ، فإلتفت إلى الأمير الذى رفع رأسه ولحيته مبللة بالدموع ليجد الجميع قد أطرقوا فى وجوم فصاح حينئذ:

- الله أكبر ... لا إله إلا الله ... محمد رسول الله ... ولا راد لقضاء الله ... تالله لقد كُتب علىّ أن أكون شقيًا ، وأن يذهب المُلك على يدى ...

فصاح الحاضرون :

- الله أكبر ... ولا راد لقضاء الله ... إنها إرادة الله ولتكن ... لا مفر من قضائه ولا مهرب ...

تطلع إليهم موسى بقلب قد ملأه الألم والأسى على ما وصل إليه حال المسلمون فى غرناطة ، وقد أدرك أن محاولاته فى إحياء روح الجهاد فيهم قد ذهبت هباء وأن الكلمات قد أصبحت عبثًا لا يجدى ، ولم يرى منهم أى بادرة توحى بالأمل فلبث صامتًا عابسًا يتطلع إليهم ،حتى إنتهوا من صياحهم فهتف فيهم غاضبًا :

- لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهودهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ، وأ مامنا السجون والأنطاع والمحارق ، هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التى تخشى الموت الشريف ، أما أنا فوالله لن أراه ...

قالها وغادر المجلس تاركًا القوم ورائه يوقعون على إتفاقية التسليم ، ليجوز بهو الأسود إلى أبهاء الحمراء الخارجية واجمًا حزينًا وإمتطى فرسه ليذهب إلى داره ويأخذ سلاحه فى طريقه إلى خيمة الشيخ عبد الله الذى لم يُفاجأ لرؤيته ، فوجده يتفقد الجند ويرفع من معنوياته م، وما إن رآه حتى إنتحى به جانبًا ، ليخبره بما دار فى الإجتماع ، وإصرار القوم على توقيع إتفاقية التسليم التى تركهم وهم يوقعونها ، فتمتم الشيخ :

- إذن فقد تخلوا عن غرناطة بالفعل ، باعوا الآخرة بعرض من الدنيا .
- لم يعد هناك ما نفعله يا شيخ ، ولكنى لن أبقى حتى أشهدهم يطأون غرناطة ، لن أشهدها وهى راكعة ذليلة فى أيديهم .

- لست وحدك يا موسى .
- ماذا تقصد يا شيخ ..؟
- لقد كان طريقنا واحد دائمًا يا ولدى ، قطعناه سويًا منذ أن عرفتك شابًا وحتى اليوم، ولن يفرقنا اليوم ما عشنا لأجله ، لذلك لن تذهب وحيدًا يا موسى ...
- وكيف علمت أننى سأذهب ..؟!!
- أنا أَخْبَر الناس بك يا موسى ، فما تفكر به لم يفارق تفكيرى لحظة منذ علمت بنيتهم فى تسليم غرناطة ، لن يُسلموا غرناطة أمام أعيننا ، لن نُقابل الله وفى رقبتنا وزر اليأس والقعود ... وليس لنا فى دنياهم شئ ، فليأخذوا منها ما شاءوا أن يأخذوا ، وليحملوا فى أعناقهم عار ما فعلوه بغرناطة إلى الأبد .
- ولكنك .....

تردد موسى ولم يستطع أن يُكمل ، فأكمل الشيخ :

- ولكنى شيخ كبير ولا أقوى على القتال ، أليس كذلك ..؟!! ، لا تقلق يا ولدى فما دمت قادرًا على حمل سيفى فليس لى عذر أمام الله ، ولن يمنعنى كِبَر عن أؤدى الأمانة وألبى نداء الجهاد ...
- لن أمنعك اليوم يا شيخ ....

شعر الإثنان بإطمئنان عجيب ربما لأول مرة منذ بداية تلك المحنة ، وقد جمعا الفتية الثلاثة عبد الرحمن ويوسف وزياد الذين تبقوا بعد رحيل إخوانهم ، وإنطلق الفرسان الخمسة لا يلوون على شئ ، وقد إمتشقوا سلاحهم وإجتازوا دروب غرناطة وطرقاتها وكأنهم يودعونها للمرة الأخيرة ، حتى غادروها من باب إلبيرة ، فى طريقهم إلى معسكر القشتاليين ....

إنطلق الفرسان الخمسة يقودهم موسى ، حتى بدت نيران طلائع جيش القشتاليين من بعيد ، ولم يشعر الفرسان القشتاليين بشئ حتى وجدوا تلك المجموعة من الفرسان ينقضون عليهم إنقضاض الأسود الجائعة ، ويثخنون فيهم طعانًا بضربات ثائرة قاتلة ، فتفرق شملهم وإرتبك فرسانهم وهم يتساقطون واحدًا تلو الآخر ، وما لبثوا أن إستعادوا توازنهم وإستوعبوا ذلك الهجوم المفاجئ ، فإنقضوا على الفرسان الخمسة يحاولون الظفر بهم وقد أصيب كل منهم بجروح وإصابات قاتلة ولكنهم لم يستسلمون حتى تساقطوا واحدًا تلو الآخر ، كان الشيخ أول

من سقط ، ثم تبعه زياد وعبد الرحمن وآخرهم يوسف ، ولم يتبق سوى موسى الذى ظل يقاتل على فرسه حتى أثخنته الجراح وقد تلقى عدة طعنات ولكنه لم ينتبه أن فرسه يتراجع تحت وطأ الضربات القوية إلى أن غاصت قوائمه الخلفية فى الوحل الذى إنتشر على حافة نهر شنيل فرفع قوائمه الأمامية ليسقط عنه موسىفى مياه النهر ولتجذبه دروعه الثقيلة إلى القاع ، لترتفع روحه هو وصحبه شاهدة على رجال لم يرتضوا المذلة والهوان ،رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وليضرب هو وصحبه المثل على واحدة من أروع صفحات البطولات الإسلامية فى الأندلس .

إرتقى موسى وصحبه من الأطهار ليتركوا الساحة لمن خذلوا غرناطة وقعدوا عن الجهاد فأذلهم الله ، فقد فتحوا أبوابها وسلموها لأعدائها ليرحلوا عنها تاركين أهلها يواجهون ذلك المصير المنتظر الذى حذر منه الصادقون ، تركوا أهل غرناطة للذل لينعموا هم بما غنموه ، فأذلهم الله من بعد عز وأفقرهم من بعد غنى ، غرباء حتى بين إخوانهم ، سجناء حتى لو إمتدت الأرض أمامهم يسيحون فيها ، فلا وطن يلملم بقاياهم بعد أن فرطوا بأرضهم وباعوا دينهم بعرض من الدنيا... ، إختار موسى ومن معه الموت ليتحرروا ، وإختاروا هم الحياة ليحيوا مقيدين بأغلال لا يشعر بها سواهم وقد فقدوا حريتهم ، فالحرية لا توهب للخانعين ، وقد كتب الله ألا يَنعم فى أرضه المفسدون .

****

الفصل السابع

****

كيف تطلبون من الآخر الإعتراف بكم وأنتم ضعفاء متفرقون..؟!! ،لا تكادون تتفقون على رأى، تُفرق بينكم الحدود والقوانين، وتقتتلون من أجل مبارة لكرة القدم، تتعاملون مع بعضكم البعض كأعداء ولستم كأمة واحدة، تحاربون المصلحون والناجحون وتفعلون بأمتكم ما لا يجرؤ أعدائكم على فعله بكم، كنتم أصحاب حقوق فضيعتموها، سدتم العالم وصنعتم حضارة أنارت للإنسانية دربها ومازالت، ملكتم الدنيا حين تجمعتم وتمسكتم بعقيدتكم وإختفت بينكم الأطماع وذابت بينكم الفوارق، كان الجميع يهابكم حين تركتم التعلق بالدنيا ونزعتم حبها من قلوبكم، حين كان الإيمان هو سلاحكم ودرعكم، فأي ن هذا من حالكم الآن.

كان الليل قد إقترب على الإنتصاف وما زالت الأمطار تتساقط عندما طوى سليم المخطوطات بعد أن إنتهى من قراءتها وقد أطرق حزينًا واجمًا ، لم يكن وحده من شعر بذلك فقد كان مروان وخوليو مثله ، فقد عاشوا فى تلك الساعات الأخيرة آخر أيام غرناطة مع كلمات الشيخ عبد الله الغرناطى وكأنهم جزء من تلك الأحداث ، وقد لاحظ الدوق ذلك فأردف فى هدوء محاولاً كسر رهبة الصمت الذى ساد الغرفة :

- هل وجدت ما تبحث عنه ..؟!!

تمتم سليم فى ضيق :

- لم يكن هو ، كنت آمل أن يكون الشيخ عبد الله الغرناطى هو جدى الأكبر الذى أبحث عن تاريخه قبل السقوط ، ولكن تلك المذكرات كانت لشخص آخر .

تطلع إليه الدوق متسائلاً :

- وما الفرق فى ذلك ، أليسوا كلهم أجدادك ولك أن تفخر بهم ...؟!!

تمتم سليم فى حيرة :

- بلى ولكن .....

لم يستطع أن يُكمل فأردف الدوق :

- ولكنك كنت تبحث عن تاريخ عائلتك بشكل شخصى ، متناسيًا أنه جزء من التاريخ العام لغرناطة فى تلك الفترة من عمرها ، كما أنك تنظر للموضوع من زاوية شخصية بحتة ، وهو ما حذرك منه دكتور أندريس ، فالحقائق ليست دائمًا مُرضية ، فقد يكون جدك مثل الشيخ عبد الله الغرناطى صاحب تلك المذكرات مجاهدًا عظيمًا ، ولربما كان أيضًا واحد من هؤلاء الذين وافقوا على التسليم ، فليس كل مجهول نبحث عنه يوصلنا إلى ما نريد ، فقد يذهب بنا إلى آخر مكان نتمنى الوصول إليه ، وربما يصدمنا بحقائق قد تغير مجرى حياتنا .

كان الدوق يتوقع جدالاً من سليم ، فقد أخبره أندريس أنه شخصية عنيدة لا تغير وجهة نظرها بسهولة ، ولكنه فوجئ به يومئ برأسه فى إستسلام قائلاً:

_ لقد كان دكتور أندريس على حق ، فتاريخ عائلتى هو جزء من تاريخ أكبر وقضيتهم لم تكن يومًا قضية شخصية ، فأيًا كان تاريخهم أو نسبهم ، كيف كانوا..؟ ، ومن كانوا ..؟ ، كل ذلك لم يعد يهم ، وإنما المهم هو ما نحن عليه الآن ، ماذا فعلنا لنستحق أن نكون أحفاد هؤلاء الأبطال ، حتى حقوقنا فى تلك الأرض لم نستطع الحصول عليها ، ولم نستطع حتى الإنتماء إليها أو حتى الإعتراف بنا فى وطننا الأم .

تطلع إليه الدوق فى تساؤل :

_ ألم تسأل نفسك يومًا عن السبب ..؟!!، كيف تطلبون من الآخر الإعتراف بكم وأنتم ضعفاء متفرقون ...؟!! ، لا تكادون تتفقون على رأى ، تُفرق بينكم الحدود والقوانين ، وتقتتلون من أجل مبارة لكرة القدم ، تتعاملون مع بعضكم البعض كأعداء ولستم كأمة واحدة ، تحاربون المصلحون والناجحون وتفعلون بأمتكم ما لا يجرؤ أعدائكم على فعله بكم ، كنتم أصحاب حقوق فضيعتموها ، سدتم العالم وصنعتم حضارة أنارت للإنسانية دربها وما زالت ، ملكتم الدنيا حين تجمعتم وتمسكتم بعقيدتكم وإختفت بينكم الأطماع وذابت بينكم الفوارق ، كان الجميع يهابكم حين تركتم التعلق بالدنيا ونزعتم حبها من قلوبكم ، حين كان الإيمان هو سلاحكم ودرعكم ، فأين هذا من حالكم الآن..؟!!.

أطرق الشباب الثلاثة برؤسهم وقد شعروا بكلمات الدوق وهى تمس كبد الحقيقة وتكشف عن جرح عميق طالما تجاهله قومهم مما يزيده سوءًا يومًا بعد يوم ويُصعب من شفائه ، حتى رفع مروان رأسه ليتمتم :

_ ولكنهم يرفضون الإعتراف بالموريسكيون كمواطنين لهم حقوق وواجبات ، فى حين إعترفوا باليهود ومنحوهم الجنسية الأسبانية بل وإعتذروا لهم ، بالرغم من أنهم لم يقدموا لأسبانيا ولا للعالم ما قدمه المسلمون .

تطلع الدوق ليونسيو إليه قائلاً:

_ لقد نجح اليهود فى إجبار العالم على الإعتراف بهم وبحقوقهم ، بالرغم من أن معظمها قد بُنى على باطل ، فها هم يقيمون دولتهم على أرض ليست لهم ويجبرون العالم على

الإعتراف بها فى الوقت الذى يقف صامتًا عن جرائمها التى تُرتكب كل يوم وقد أسكت ضميره وسد أذنيه وأغمض عينيه ، يستدرون عطف العالم ويزرعون فيه الشعور بالذنب بقصة الهلوكوست المليئة باللغط التاريخى والحقائق المزيفة ، يسيطرون على إقتصاديات الدول الكبرى فيحركون صانعى القرار فيها وفقًا لأهوائهم ومصالحهم ، فى مقابل كل هذا ماذا فعلتم أنتم ...؟!! ، لقد إخترتم الحلول السهلة ، هجرتم أرضكم التى تملكوها وتركتوها بدلاً من إعمارها ومحاولة إصلاح الأحوال فيها ، تفرقتم فى شتى بقاع الدنيا لتعيشوا غرباء على أرض غريبة ، تتركون الساحة للمفسدين ليضيعوا أوطانكم ويعبثون فى مقدراتكم ويبعيون تاريخكم ، لقد بذل أجدادكم الجهد والمال والحياة من أجل ما يؤمنون به ، من أجل رفعة تلك الأمة وإعلاء شأنها ، أما أنتم فتضيعون حياتكم فى لوم الآخر ومطالبته بأن يعطيكم حقوق ضيعتموها بأيديكم بضعفكم وتهاونكم ، ونسيتم أن الحقوق لا تُطلب ولا تُستجدى ولا تُوهب وإنما تُنتزع إنتزاعًا ، تستطيعون إجبار الجميع على إحترامكم وإعطائكم حقوقكم والإعتراف لكم بها ، فقط إذا إتبعتم نهج أجدادكم وتمسكتم بما يجمعكم ، فأمتكم هى ذلك المارد الذى يخشى الجميع إستيقاظه .

كانت كلمات الدوق قوية حاسمة ، كان كالطبيب الذى كشف لهم عن الداء ووضع أمامهم الدواء المُر، فقد وضعهم فى مواجهة مباشرة مع أنفسهم وعقولهم وضمائرهم ، مواجهة مباشرة مع معتقداتهم وأفكارهم التى نشأوا وتربوا عليها ، وبالرغم من صعوبة تلك المواجهة إلا أنها جعلت كل منهم يكتشف نفسه من جديد ويرى أشياء ربما لأول مرة فى حياته يلاحظها ...

فها هو خوليو وقد تذكر جده وجدته ليكتشف أنه كان يهرب من نفسه ومن هويته وليس منهما ، خوفه من أن يفقدهما وأن يعود وحيدًا جعله يفقدهما فى حياتهما بالفعل كما فقد أبويه من قبل ، هروبه جعله يعيش وحيدًا بلا عائلة ولا هدف ولا قضية يعيش من أجلها ، ووطنه الذى لم يفكر حتى فى زيارته منذ وفاة أبيه ، لم يكن يهمه فى شئ ، حتى أخباره كان يتجاهلها ويرفض سماعها ، وكأنه يهرب من مصير أبيه الذى عاش غريبًا يحن إلى وطن لم يجد فيه لأحلامه متسعًا ومات غريبًا بعيدًا عن والديه أقرب الناس إليه ، ليُدفن وحيدًا بعيدًا عن أرضه التى إحتضنت طفولته وشبابه ، أفراحه وأحزانه .

وسليم الذى ظل يبحث عن وطن يلفظه ويقلل من شأنه لمجرد أنه عربى مسلم ، وطن يسعى ويقاتل من أجل أن يعترف به أسوة باليهود الذين لم يقدموا له كما قدم أجداده ، مُتناسيًا وطن يحتضنه كما إحتضن آبائه وأجداده من قبل بعد طردهم من أسبانيا ، وطن يحمل معه ذكرياته وطفولته وشبابه ، وطن أعطاه الكثير وما زال ، لم يبخل يومًا عليه ولم يضن ، وطن أعطاه هويته دون أن يطلب منه المقابل .

أما مروان فقد تذكر كيف كان يبحث عن أسهل وأيسر الحلول حين هاجر من بلده ليستقر فى أسبانيا بعد أول مواجهة له مع الفساد ، شعر بعدها بالضعف والعجز وقرر أن يبتعد ليعمل فى إحدى الصحف الأسبانية بعيدًا عن أى مواجهة ، دون هدف أو قضية يحملها على عاتقه ، تاركًا أهله وبلده ليستقر فى بلاد غريبة عنه دون ذكريات ولا مستقبل ، ولولا وجود سليم معه لقتلته الغربة ، وبالرغم من ذلك يُعامَل دائمًا على أنه عربى مُهاجر تُفضل عليه جميع الجنسيات ، وكأنه إنسان من درجة أدنى .

تطلع إليهم الدوق وهو يبتسم وقد أدرك أن كلماته قد أصابت هدفها وتذكر الشيخ عبد الله الغرناطى صاحب المذكرات وفتيانه التسعة ، وشعر ولأول مرة منذ أن إجتمع بهؤلاء الشباب الثلاثة أن بداخل كل منهم فتى من هؤلاء الفتية ، علَّمه الشيخ عبد الله وأثر فيه موسى .

خيم صمت رهيب على المكان وكأنما يشهد ميلاد جديد لشئ لم يدركوا كنهه قط ، شئ ظل يراودهم ويعبث فى قلوبهم ويهتف بداخل كل منهم وكأنه يريد التحرر من تلك الأغلال التى لطالما طوقوه بها ليحطمها ...

****

كان صوت التلفاز عاليًا فى الغرفة الخاصة بأمن قصر جوزمان أثناء إذاعة تلك المبارة الهامة فى الدورى الأسبانى بين برشلونة وريال مدريد ، حيث إجتمع حراس القصر ليشاهدوا المبارة وليحتموا من تلك الرياح الشديدة والأمطار التى لم تتوقف عن الهطول بشدة منذ عدة ساعات ، وقد فوجئ الجميع بإيلينا التى تعمل بمطبخ القصر ، وهى تهتف فى مرح قائلة :

- أعرف أنكم تحتاجون لشراب ساخن يبعث الدفء فى أجسادكم فى هذا الجو البارد ، لذلك أحضرت لكم حلوى التشورو ومعها شراب الشيكولاتة الساخن .

كانت إيلينا سيدة فى منتصف العمر يحبها كل من بالقصر لطيبتها ومرحها الدائم ، لذلك أقبل الجميع على ما قدمته لهم من حلوى وشراب وهم مشغولون بمتابعة المبارة ، فجلست معهم لمتابعتها وقد إنضم إليهم جاياردو لاحقًا.

فى هذه الأثناء كان أكثينو وبوريجو يتسللان إلى القصر من ناحية الغابة بعد أن عطل العجوز كاميرا المراقبة فى تلك الناحية للقصر عن طريق إختراق نظام الكاميرا بحيث تكون ثابتة على المشهد الذى يطل عليه هذا الجانب من القصر ، أما أجهزة الإنذار فقد كان القصر مزوداً بأحدث أجهزة الإنذار اللاسلكى والتى تكشف عن وجود متسللين عن طريق حساسات للحركة يتم تركيبها فى الأماكن التى يمكن الدخول منها ، ولكن العجوز قامبتعطيل حركة نقل البيانات في الشبكات اللاسلكية بواسطة أحد مصادر التشويش قبل أن يقوم أكثينو وبوريجو بالتسلل إلى داخل القصر ، وما إن أصبح الإثنان داخل حديقة القصر حتى تسللا فى خفة داخل القصر بعد أن تأكدا من إنشغال أمن القصر فى متابعة المبارة كما أخبرهما العجوز ، مما جعل بوريجو يتمتم فى خفوت :

- هذا العجوز داهية بالفعل ، فقد عطل أجهزة الإنذار وكاميرات المراقبة حتى نتمكن من التسلل للمكان دون أن يشعر بنا أحد ...

تمتم أكثينو وهو يحاول فتح الباب الخلفى المخصص للخدم والعاملين بالقصر، والذى فُتح معه فى سهولة قائلاً :

- عندك حق يا بوريجو فقد تطورت طرق حماية منذ آخر مرة لنا تعاونا فيها مع ذلك العجوز المقيت .
- إن وجود هذا الجو الممطر قد ساعدنا كثيرًا ، حتى لا يتجول الحراس كثيرًا فى أنحاء القصر.
- علينا أن ننجز مهمتنا بأسرع وقت ممكن قبل أن تنتهى المبارة أو تتوقف الأمطار وينتبه الحراس .

كان الجو يُمطر بشدة والرياح تشتد حينما دخلا الإثنان إلى القصر من الباب الخاص بالخدم والعاملين بالقصر بعد أن تأكدا من إنشغال الجميع وخلو المكان ، كما خطط العجوز ، وفى خفة صعدا إلى الطابق الثانى حيث غرف النوم ، ومنهم تلك الحجرة التى وصفها لهم ، فإنحنى

أكثينو ليعالج قفل باب الحجرة ، حتى نجح فى فتحه ، ليجدا مجموعة نادرة من اللوحات التى تم حفظها فى هذه الغرفة ، بحثا جيدًا عن تلك اللوحة التى وصفها لهم العجوز على ضوء ذلك المصباح اليدوى الصغير حتى لا ينكشف أمرهما ، حتى عثرا عليها أخيرًاوسط اللوحات والأعمال الفنية التى إمتلأت بها الغرفة ، فأسرع أكثينو إلى اللوحة ليفصلها عن الإطار بحرص قبل أن يضعها فى حافظة حتى لا تتلف بسبب الأمطار أو غيرها ، وهو يهتف فى بوريجو قائلاً :

_ هيا فلنسرع قبل أن يكتشف أحد أمرنا .

ولكن بوريجو لم يتحرك وهو يتطلع إلى إحدى اللوحات ويتمتم قائلاً :

_ لماذا يحصل العجوز على النسبة الأكبر فى حين أننا يمكننا الحصول الآن على لوحة أخرى لحسابنا نحن ...

حدق أكثينو فى بوريجو بغضب قائلاً :

_ لا وقت لدينا لمثل هذا الهراء ، ثم أن هذا العجوز ليس ساذجًا كما رأيت ، فهو يعلم جيدًا ماذا يفعل ، ولا نريد أن تفشل تلك العملية بالطمع فى المزيد .

_ ولما لا نحصل على المزيد ..؟!! ، فذلك العجوز لن يجرؤ على فعل شئ ، دعنا نفعلها هذه المرة يا أكثينو ، هذه المرة فقط .

لم يستطع أكثينو إقناع بوريجو بالعدول عن رأيه فإستجاب لرغبته فى الحصول على لوحة أخرى ، وما إن أتما عملهما حتى غادرا الغرفة فى طريقهما للطابق الأسفل حتى يغادرا القصر بما غنما ، ولكن لسوء حظهما كان الدوق قد تذكر ميعاد دوائه وحاول أن يجد جاياردو لإحضاره له ، ولكنه كان فى غرفة الأمن الخاص بالقصر يتابع المباراة ، فاضطر للإستئذان من الشباب لكى يتناول دوائه ، وما إن غادر غرفة مكتبه فى طريقه للطابق الأعلى حيث غرفة نومه ، حتى كان وجهًا لوجه أمام أكثينو وبوريجو الذين كانا ملثمين فلم يتبين ملامحهما ، مما جعله يحاول التراجع بسرعة إلى غرفة مكتبه ولكن الإثنان كانا قد قفزا على الدرج ليلحقا به قبل أن يبلغ باب غرفة مكتبه ، وقد أمسكا به محاولين السيطرة عليه لتقييده .

كان الأمر ليتم على ما يرام لولا أن سمع الشباب الثلاثة داخل المكتب تلك الجلبة فى الخارج ، فقام خوليو ليستطلع الأمر بحذر ، فرأى إثنين من الملثمين يحاولون تقييد الدوق ، تقدم

خوليو فى حذر من الملثمين الذين كانا يوليانه ظهريهما ، فى حين إتسعت عينى الدوق بشدة حين رأى خوليو ، مما نبه بوريجو إلى وجود أحد ما خلفهم ، فإلتفت بسرعة ليواجه خوليو وقد تبعه سليم ومروان ، حاول بوريجو أن يسحب مسدسه لولا أن خوليو كان على مسافة قريبة منه فقفز ليركل المسدس من يده ويشتبك معه فى قوة ، أما أكثينو فلم يجد بُد من ترك الدوق حتى يستطيع مواجهة سليم ومروان ، الذين بادرا بالهجوم عليه ، مما جعله يلكم سليم بشدة ليُلقيه أرضًا إلى جانب الدوق ، الذى حاول مساعدته على النهوض ، أما مروان فقد أنقض على أكثينو ليلكمه لكمة قوية تفاداها أكثينو ببساطة ليدور قتال عنيف بين خوليو ومروان من ناحية وأكثينو وبوريجو من ناحية أخرى

ظل القتال دائرًا بينهم حتى قام خوليو بركل بوريجو ركلة قوية فى صدره أوقعته أرضًا ليصطدم رأسه بمنضدة رخامية ويسقط مُصابًا غارقًا فى دمائه ليفقد الوعى على الفور ، وما كاد أكثينو يلمح صاحبه وهو غارق فى دمائه حتى ثار وقام بدفع مروان بعيدًا ليسحب مسدسه ويوجهه له ، إلا أن خوليو إنقض عليه وأمسك بيديه قبل أن يُطلق النار ، وظلا يتصارعان حتى إنطلقت من مسدس أكثينو طلقة قاتلة من مسدسه الكاتم للصوت أصابت خوليو فى بطنه فسقط أرضًا ، فى حين إستدار أكثينو لُيهدد مروان وسليم ومعهم الدوق ، لكنه تلقى رصاصة من مسدس آخر كاتم للصوت ، فإلتفت الجميع فإذا به جاياردو الذى أتت به الصدفة حين تذكر ميعاد الدواء الخاص بالدوق ، فرأى القتال يحتدم ولاحظ مسدس بوريجو المُلقى ، فأمسك به وأطلق النار على الملثم قبل أن يطلق النار على مروان ، ولكن أكثينو إلتفت ناحيته وهو يحمل مسدسه وحاول إطلاقه عليه فبادره جاياردو برصاصة ثانية وثالثة حتى سقط أكثينو مضرجًا فى دمائه وقد فارق الحياة.

وقف جاياردو مذهولاً وهو لا يزال ممسكًا بمسدس بوريجو ، ثم لم يلبث أن أسرع إلى الدوق هاتفًا :

_ سيدى الدوق هل أنت بخير ...؟!! ، هل أصابك مكروه ..؟!

هتف الدوق وهو ينحنى ليفحص خوليو :

_ أنا بخير يا جاياردو ، ولكن خوليو ليس بخير ، فلتطلب الإسعاف فورًا وأتصل بالشرطة ، وإستدعى أمن القصر حالاً .

_ ولكن الطريق مغلق يا سيدى ولن تتمكن الإسعاف من الوصول فى الوقت المناسب .

صرخ الدوق فى غضب وهو يتطلع إلى خوليو الذى يحاول مروان وسليم إسعافه وإيقاف النزيف :

_ إتصل بهم وحسب ، وأبلغهم أن ينتظرونا على الطريق حيث لن يتمكنوا من العبور ، وأحضر السيارة فورًا حتى نتمكن من مقابلة سيارة الإسعاف على الطريق .

إنطلق جاياردو لتنفيذ أوامر الدوق ، وخلال لحظات كان أمن القصر فى إستنفار تام ، وهم يحاولون تأمين القصر ويساعدون سليم ومران فى نقل خوليو والملثم الآخر الذى إرتطمت رأسه بالمنضدة إلى السيارة ، فقد كان لا يزال على قيد الحياة ، وما هى إلا دقائق حتى إنطلقت من القصر سيارتين يحملان خوليو والملثم بصحبة مروان وسليم والدوق وبعض أفراد أمن القصر ، ولم يلبثوا حتى قابلوا سيارة الإسعاف حيث سدت الطريق تلك الشجرة الضخمة التى سقطت مساء اليوم ، فقام الجميع بالتعاون لنقل المصابين إلى سيارتى الإسعاف ، بصحبة الدوق ومروان وسليم ، وقد وصلت الشرطة إلى هناك حيث عاد بهم رجال الأمن إلى القصر للتحقيق فيما حدث.

****

أفاق خوليو بعد عدة أيام فى مستشفى دي لا سانتا ميسريكورديا والتى تخضع لعناية بيت مدينة سيدونيا فى سانلوكار دى بارميدا ، ليجد مروان وسليم إلى جانبه ، والذين ظلا بجانبه لم يُفارقانه منذ إصابته فى قصر جوزمان ، فأشار إليهما محاولاً التحدث فى وهن :

_ ماذا حدث ..؟!! ، أين أنا الآن ..؟

أشار إليه سليم قائلاً :

_ أنت لا زلت فى سانلوكار ، فقد أنقذت حياتنا جميعًا حين هجمت على ذلك المجرم لتمنعه من إطلاق النار مما أدى إلى أصابتك برصاصة أثناء صراعك معه، وقد تدخل السيد جاياردو فأطلق عليه الرصاص قبل أن يصيب أحد منا .

حاول خوليو النهوض ولكنه شعر بآلام شديدة فى بطنه من أثر تلك الرصاصة فتمتم فى ألم قائلاً:

- هل أنتما بخير..؟، وكيف حال الدوق ليونسيو..؟ ، هل أصابه مكروه..؟

هتف مروان فى مرح قائلاً:

- جميعنا بخير، ولكنك أرعبتنا يا رجل ، ألم يعلموك فى الصغر ألا تتشاجر مع أحد يحمل سلاحًا .

ضحك سليم ومروان وحاول خوليو أن يبتسم فى شحوب قائلاً :

- ألم تتوصل الشرطة إلى سبب وجود هؤلاء المجرمين فى القصر..؟

هز سليم رأسه قائلاً :

- بلى لقد فعلت ، فلن تتخيل من كان ورائهم ، إنه جاياردو ، فقد إستأجرهم من أجل سرقة إحدى اللوحات الفنية النادرة الموجودة فى قصر الدوق والتى كانت تعتبر من التراث العام بعد أن تبرعت بها الدوقة لويزا والدة الدوق ليونسيو مع القصر بمحتوياته من القطع واللوحات النادرة والتى تشكل قيمة تاريخية لا تُقدر بمال ، وقد تم عرض بعض تلك اللوحات بالقصر للعامة وبقى البعض الآخر محفوظًا بالقصر تحت رعاية الدوق ، بعد أن أمرت المحكمة بالمحافظة على القصر ومحتوياته وإعتبارها من التراث التاريخى فى النزاع بين الدوق وإخوته ومؤسسة كازا ميدينا سيدونيا التى تُشرف على القصر.

أردف مروان :

- لقدإستأجرهم جاياردو ووضع لهم الخطة وعطل كاميرات المراقبة وأجهزة الإنذار فى مهارة ، ثم ذهب ليشاهد المبارة مع رجال الأمن ليشغلهم ويتأكد من عدم إقترابهم من المكان أثناء العملية ، ومن ناحية أخرى ليشاهده الجميع وقت الجريمة فيُبعد عنه الشبهات ، ولكنهم طمعوا عند رؤيتهم لهذا الكم من اللوحات فبقوا ليسرقوا واحدة أخرى ، وعند فرارهم وجدوا الدوق أمامهم حين إستأذن منا ليُحضر علاجه ، وحدث

ما حدث ، أما جاياردو فقد ظن أن العملية إنتهت وأن اللصان قد غادرا فجاء إلى القصر ليطمئن أن كل شئ سار كما خطط له ، ولكنه فوجئ بما حدث ولمح مسدس أحدهما والذى ركلته أنت من يده حين صوبه إليك ، فأخذه ليُطلق النار على الآخر ليتخلص من الشاهد الوحيد الذى يستطيع التعرف عليه ، بعد أن ظن أن الآخر قد لقى مصرعه عندما رآه مُلقى غارقاً فى دمائه .

أشار إليه سليم قائلاً :

- ولكن لسوء حظه لم يمت اللص الآخر ، وإنما فقط أُصيب فى رأسه ، وما إن أفاق وأدرك ما حدث حتى إعترف على جاياردو .

هتف مروان قائلاً:

- ليس هذا فحسب ، وإنما إعترف أيضًا أن هذه لم تكن أول مرة ، وإنهم فعلوا ذلك من قبل ، فقد سبق وإستأجرهم العجوز ليسرقوا له من القصر عدة لوحات ومخطوطات أثرية ، كان ذلك أثناء حياة الدوقة ، والتى تعرضت لموقف مُحرج مع الحكومة الأسبانية حين ظهرت تلك اللوحات والوثائق فى لندن وأمريكا ، ولم يتطرق الشك وقتها إليه.

عقد خوليو حاجبيه وهو يتمتم قائلاً:

- ولكن هناك شئ لم أفهمه بعد ، لماذا يختار رجل ذكى مثل جاياردو هذا التوقيت الذى تواجدنا فيه مع الدوق ، فى حين أنه كان من الممكن أن يفعل ذلك عند سفر الدوق وخلو القصر أو حتى عندما يكون الدوق وحده بالقصر.

تبادل مروان وسليم النظرات وهما يضحكان ، ومروان يقول :

- كان يُدرك أنه لو فعل ذلك فسيكون أول من تُوجه له أصابع الإتهام ، لذلك إنتهز فرصة زيارتنا للدوق للقيام بتلك العملية ، لكى يتم إتهامنا بتلك الجريمة ، ولن يحتاج الأمر حينئذ لمزيد من الجهد ، فنحن إثنان من العرب أتوا لزيارة الدوق من أجل مخطوطة وقد خططا لسرقة إحدى اللوحات ولن تُكتشف السرقة إلا بعد ذهابنا ، ولكن ما أربك له خطته هو ما حدث من إغلاق للطريق وإضطرارك للبقاء

معنا طوال الوقت ، فهو لم يتخيل أنك عربى أيضًا ، وبذلك لن يستطيع توجيه الإتهام إلينا ، ولكنه لم يستطع إيقاف اللصين ، فقد كان الأوان قد فات لذلك ، فقرر السير فى خطته حتى النهاية ، وبهذا تكون قد أنقذتنا مرتين .

ضحك الثلاثة وخوليو يتمتم فى ألم قائلاً:

- يالها من خطة خبيثة ...

توقف مروان وقد تذكر شيئًا ما جعله يهتف قائلاً :

- هناك أمرًا ما يثير فضولى منذ أن أطلعنا الدوق على تلك المخطوطة ، ما الذى أتى بمذكرات الشيخ عبد الله من غرناطة إلى سيدونيا ، وكيف وصلت لعائلة الدوق.

ضحك سليم وهو يهتف قائلاً :

- لقد بدأت أقلق عليك بالفعل يا مروان ، فقد بدأت تفكر وتتساءل .

ضحك الثلاثة ومروان يلكز سليم ، الذى أردف قائلاً:

- لقد فكرت فى ذلك بالفعل مما جعلنى أسأل الدوق ، الذى أخبرنى أن منزل الشيخ عبد الله الغرناطى لما يعد ملكًا لأحد بعد وفاة الشيخ ، لذلك وضع القشتاليين يدهم عليه ثم منحه الملك فرناندو للدوق خوان ألونسو بيريز دي جوزمان الدوق الثالث لمدينة سيدونيا ، وذلك جزاءً له على خدماته الجليلة التى قدمها للتاج القشتالى ، وقد عثر هذا الدوق على تلك المذكرات بمنزل الشيخ فنقلها معه إلى قصر جوزمان التى وجدت فيه تلك المخطوطات ، وهو ما ذكره الدوق فى يومياته الموجودة فى أرشيف القصر، ولا أحد يدرى لماذا إحتفظت بها الدوقة لويزا والدة الدوق ليونسيو ، ولم تضمها لأرشيف القصر مع عدد آخر من المخطوطات .

توقف سليم ليقول فى هدوء :

- ولكن ألم تلاحظا أن مقابلتنا ذلك اليوم حملت الكثير ، حادث السيارة والمخطوطات وما جاء فيها وحديث الدوق وإنتهاء بتلك الحادثة الغريبة ، أشعر أن تلك الأحداث قد جمعتنا لحكمة ما .

صمت الثلاثة وهم يفكرون فى تلك الحكمة التى جمعتهم والتى قد تُغير حياتهم ...

إلى الأبد....

****

لم تمض عدة أيام أخرى حتى كان خوليو يعد نفسه لمغادرة المستشفى بصحبة سليم ومروان بالرغم من إعتراض الأطباء ، فقد فكر كثيرًا خلال الأيام الماضية فى كل ما وقع له من أحداث وما تعلمه من تلك الرحلة ، وخلال تلك الأيام لم يغب عن ذهنه جَديه فى مصر ، فقد شعر بإحتياجه لهما بشدة ، وكأنه يريد أن يعوض تلك السنوات القاسية التى قضاها بعيدًا عنهما...

كان شاردًا حين سمع طرقات على الباب ليسمح للطارق بالدخول ليُفاجأ بالدوق ليونسيو الذى رفض العودة إلى أمريكا قبل أن يطمئن عليه ويتأكد من تماثله للشفاء ، لم يكن خوليو يدرى لما شعر بأن ذلك الرجل قريب منه وكأنه يعرفه من قبل ، ولكنه أدرك الآن أنه يذكره بجده .

كان الدوق قد أتى ليطمئن عليه ويدعوه لقضاء بعض الوقت فى ضيافته ومعه سليم ومروان ، ولكنهم إعتذروا منهفقد كان على ثلاثتهم السفر فى أسرع وقت فأمامهم الكثير ليفعلوه .

فقد قرر سليم العودة إلى كوينكا ليحاول إنهاء رسالته إستعدادًا لمناقشتها قبل أن يعود إلى عمله بجامعته فى تطوان لتكون البداية من هناك، أما مروان فقد كان طوال تلك الفترة التى قضاها فى سانلوكار يُراسل الصحف التونسية ، فقد قرر العودة التى تونس وإمتلأت نفسه بالحماس والتصميم لمواجهة ما هرب منه يومًا .

أما خوليو فقد فكر فى جَديه الذين كانا يعتبران كل أهله ، وكيف كان يعاملهما فى قسوة وبالرغم من ذلك كانا دائمًا يغدقان عليه عطفًا وحنانًا لا ينتهى ويهتمان به وبأحواله ، ولكن قسوته لم تسمح له برؤية ذلك وأعمته عما كان يسببه لهما من ألم ، ولكن الوقت لم يفت بعد ، ما زالت أمامه الفرصة ليعوضهما عما مضى .

شعر بإشتياقه إليهما وقبل أن يغادر المستشفى فى طريقه إلى مالاجا أمسك بهاتفه وإتصل بجده ، وما إن سمع صوته حتى هتف فى لهفة :

_ لقد إشتقت إليكما كثيرًا يا جدى ....

وللمرة الأولى فى حياته شعر خوليو أن له عائلة تحبه وتحتويه وتخاف عليه ، وأن له وطن يشتاق إلى دفئه ، مما جعله يُنهى مكالمته قائلاً لجده:

_ سوف أصل القاهرة الأسبوع القادم ، أريد أن تكونا أول من أراهم فى مصر.....

غادر الفتية الثلاثة المستشفى فى طريقهم إلى هناك ....

حيث ينتمون.....

تمـــــــــــت

ميرفت صلاح

2019/10/12

المراجع

****

دولة الاسلام فى الاندلس . العصر الرابع . نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين . محمد عبد الله عنان

الأندلسيون عقب سقوط غرناطة . محمد يحى مطهر

قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط . د. راغب السرجانى

محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها . د.محمد عبده

الحروب الصليبية فى الأندلس . د. عبد المحسن طه

الأندلس .. التاريخ والحضارة والمحنة . د. محمد عبده

محنة العرب فى الاندلس . أسعد حومد

وتذكروا من الأندلس الإبادة . د. أحمد رائف

نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر. مجهول . ضبطه وعلق عليه الفريد البستانى.

نهاية الوجود العربى فى الاندلس . د. على حسين الشطشاط

صور من حياة الحرب والجهاد فى الأندلس . د. أحمد مختار العبادى

شكر خاص

****

إلى كل من وقف بجوارى ودعمنى ولو بكلمة لإتمام هذا العمل المتواضع ...

فاطمة وحنان صلاح ، أ.محمد حمدى

د. عمرو مرزوق

أ.صبحى صلاح ، أ. جيهان فتحى ، أ. إيمان أنور، أ. عصام زكى ، أ.محمد حسين

أصدقائى ... هاجر ومريم وعبد الرحمن حمدى ... سليم محمد